

المِرَاةُ العَرَبِيَّةُ

فِي جَاهِلِيَّتِهَا وَأَسْلَامِهَا

أَلْفُهُ

بِعِزِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

المحرر العربي لديوان جلالة الملك

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الأولى) سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

الناسخ

مكتبة الثقافة

المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامة العربية

بين الرأى والهوى

كان على العرب بعد أن لحق رسول الله بربه أن يتتبعوا الوسائل لنشر دينه وإذاعة دعوته ، وكان عليهم حين لا تجد الحجة البالغة سبيلاً إلى القلوب أن يجعلوا السيف كفيلاً بنشرها في مشارق الأرض ومغاربها ، وبقدر ما كانت الأمانة الملقاة على عواتقهم فادحة والغاية بعيدة كان جهدهم كذلك فادحاً وهمتهم بعيدة ، فقد وثبوا وثبة رجفت لها قوائم الأرض ، فلم يبق سهل ولا جبل ، ولم يبق قطر ولا مصر ، ولم يبق عرش ولا تاج إلا تبدل حالاً بعد حال ؛ وكذلك صاروا يضربون في مناكب الأرض ، فمن وادعهم ودخل في ذمتهم عاهدوه على الوفاء له والذود عنه ، ومن حشد لهم ونهد لقتالهم فرقوا جمعه ومزقوا شمله ونكسوا عرشه وتولوا حكومته . وما كانت قوتهم التي أخضعت لهم الرقاب وذلت لهم الصعاب في وميض سيوفهم ولا عديد جنودهم ولا قوة سواعدهم ولا نفاذ آرائهم فامن أمة ممن ناصبوها الحرب إلا وهي أشد منهم قوة ، وأكثر عدداً ، وأسنى تدبيراً ، وأقصد تفكيراً ، ولكنها كانت في قلوبهم التي ملأ الإيمان أقطارها فلم يدع فيها مطمئناً في أمل ولا مستمتعاً بمتاع ، وفي نفوسهم التي استمكنك العفة من صميمها فلم تفتحها المآرب ولم تلوثها الشهوات ، وفي مشاعرهم التي لا تريع لآية من آيات الكتاب إلا تفرقت في العيون عبرة جارية ، وتأججت في الصدور ناراً حامية . تلك كانت قوتهم التي أعزهم بها الإسلام فآمنهم من خوف ، وجمعهم من شتات ، وجعلهم خير أمة أخرجت

للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . على أن تلك القوة المروعة كان يساورها خطر مُحِيق من الفتنة بما حوت الممالك المفتوحة من عيش ناعم، ومُلك باسَم، وزهو ولهو، وعزف وقصف، وما وراء ذلك مما يُفسد سرائر القوم، ويكدر ضمائرهم ويطفىء نور اليقين من قلوبهم، ويحمد نار الحمية من صدورهم وكان الإشفاق من وبال ذلك الداء أشد ما خامر قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، وفي سبيله ألقى على السابقين الأولين من المسلمين كلمته الخالدة « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومن أجله حرّم على رجال المسلمين أن يتحلوا بالذهب وقال للمتختم به : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده » وحرّم عليهم لبس الحرير وقال : « إنما يلبسه من لا خلاق له » ، وأشبه ذلك ، مما كبح به الرسول جماح الفتن وأخذ به جمرة الشهوات كثير لا يناله التعداد

وكان ذلك الإشفاق مما يهيج اللوعة والحسرات في صدر الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ومن قوله وهو مرتكس في مرض موته يخاطب المهاجرين من أصحاب رسول الله : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذي نفسى بيده لأن يُقدّم أحدكم فتُضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا »
وبينا كان الفاتحون يعمنون في أعماق فارس والروم وكانت مغنم العدو وسبائهم تتوارد على الخليفة الأيد عمر بن الخطاب — بينا كان ذلك كله كان عمر في شغل بما عسى أن يصيب العرب من تلك الدنيا المقبلة والحياة المجلوّة، وهو الذي يقول بعد أن وطئ المسلمون أعراف مدائن كسرى « ليت بيني وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم ولا يصلون إلينا »

وكانت رهبة الدين وهيبة الخلافة لا تزالان تعقدان على عيون العرب حجاباً لا ينفذ النظر منه إلى متاع الحياة ، وكانوا لا يزالون من نشر دينهم على غاية لم يبلغوها وهي غاية تملك عليهم خواطر نفوسهم ومدارج أنفاسهم فلا يشعرون إلا بها ولا يَحْيَوْنَ إلا لها ولا يلمحون ما دونها فلم تأخذهم لذلك فتنة ولم تفتنهم شهوة ، ولم تبهرهم زينة . ولعلك تعلم أن مما أثار الناس على الشهيد المظلوم عثمان بن عفان وحملهم على اقتحام داره وسفك دمه ميله قليلاً إلى ترفيه نفسه وساقوا من الأمثلة لذلك عملية بيته وتزيين جدرانها واتخاذ الوصائف لخدمته . وكانت فتنة عاتية قاتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً وأذاقوا بعضهم بأس بعض ولم تنكشف حتى عصفت بعصر الخلافة وذهبت بجيل النبوة

وجاءت الدولة الأموية ، وفي عهدها أخذت رهبة الدين تحسر عن قلوب العرب ، وقيلت أقوال لم تكن قبلُ تقال واجترحت أفعال لم تكن من قبل تفعل ؛ وأى قول أشنع من أن يقوم شاعر مسلم بين سمع المسلمين وبصرهم فيقصّ عليهم حديث اعتدائه على أعراض المسلمات ثم لا يجد من الناس دفعاً ولا استنكاراً . بل أى جرم أبشع من أن يقف شاعر نصراني بين يدي الخليفة الأموي فيسخر من شريعة الإسلام بقوله :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بأكل لحم الأضاحي
ولست بقائل كالغير يوماً قبيل الصبح : حي على الفلاح
ولكني سأشربها صبحاً وأسجد قبل منبج الصبح

ثم لا ينتهي من لدن الخليفة الا مثوباً موفوراً

وهل أتاك حديث أبناء النبي وأحبابه الذين عاهد الله المسلمين على مودتهم بقوله تعالت آيته « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » أرايت كيف قتلهم زجال هذه الدولة على مدرجة الطريق طعنًا بالرماح وحرًا بالسيوف وصبرًا

بالظلم ثم ساقوا نساءهم سَوَاهِمَ الوجوه حواسر الرؤس تحملهم الإبل المُعَرَّاة من بطحاء كربلاء الى مقر الملك الأموى بدمشق

والمسلمون بمسمع وبمرصد لا جازع منهم ولا متصدع

على هذا السنن من العقوق للاسلام سار الأمويون في غزو مدينة رسول الله وابعثها وهدم الكعبة واحرقها

وكان أكبر الظن بالقوم وتلك حالهم في انتهاك الحرمات أن يستمتعوا بكل ما حوت البلاد المفتوحة من لذة ونعيم لولا أن معاوية بن أبي سفيان شيخ بنى أمية وفعل أجمعهم نفخ في العرب روح العصبية العربية وحكم بهم الأمم على أنهم السادة وغيرهم المسودون وأنهم الآمرون وغيرهم المأمورون فحجزهم بذلك عن مخالطة من يلونهم من الأمم إلا مخالطة الحذر المترفع الذي يرى الاتصال الوثيق بمواليه منقصة وعاراً

ذلك الى أن العرب قضوا الشطر الأكبر من ذلك العهد وهم فرق متناحرة ، بعضهم لبعض عدو ، ليس منهم الا من كفر خصمه واستحل دمه ؛ فهناك أهل الشام ومن حولهم من الأعراب يشايعون بنى أمية ، وهناك أهل العراق يثبون الدعوة لبنى هاشم ، وهناك أهل الحجاز يلوذون بابن الزبير ، وهناك الخوارج الذين خرجوا على الخلافة الموروثة والملك المفصوب ؛ فأى أولئك يتسع له الوقت ليرح في مجال اللهو ويأخذ بأسباب النعيم

والحق أن شيئاً من وسائل اللهو تجلب الى الأمصار الثلاث - دمشق والبصرة والمدينة ، وتدوقه الخواص من سادات العرب حين اطمان الملك وانقطعت أواصر الفتن ، ومن هذه الملذات فن الغناء ، جاء به جماعة من موالى الفرس وعلموه القيان الفارسيات فأسمعن العرب أشعارهم موقعة على النغم الفارسي ؛ على أن

ذلك لم يَعدُ القليل من ذوى الجاه يسمعون في كثير من التجميل والاعتدال
 وكان حكماء بنى أمية وعظماؤهم يتواصلون باجتناّب السماع وما يستدعيه من
 تبسط وابتدال . وهذا الوليد بن عبد الملك يطرق سمعه غناء مغن في عسكره
 ويرى جارية من جواريه تصفى الى الصوت فيدعو بالمغنى ويأمر بخصائه ثم يأمر
 بخصاء مخنثى المدينة الذين يفسون الديار ويغنون نساءها بالصوت المخنث والكلام
 المبذول ؛ وهذا مسلمة بن عبد الملك يستمع غناء المغنيات فى قصر أخيه الخليفة
 سليمان فيزجره فى غير رفق ولا هوادة فلا يسع الخليفة إلا أن يطوى بساط الغناء
 ثم لا يعود إليه

وكان من سنة المستمعين من خلفاء بنى أمية أن يجلسوا ويستمعون ندمائهم
 ستر مضروب تصوناً واستتاراً واحتفاظاً بما يطلبه الملك من هبة ووقار . ولقد
 مكّن الخليفة الخليفة الوليد بن يزيد لخصومه من أهل اليمن أن يهتكوا عليه ستر الخلافة
 ويقتحموا عليه دارة الملك ويقتلوه جهرة بين قومه وعشيرته لأنه انحرف عن سبيل
 آبائه الى سبيل الهوى والخلاعة والابتدال . وفى ذلك يقول قائلهم

قتلنا الفارس المختال لما أضاع الحق واتبع الضلالا
 ألا أبلغ بنى مروان عني بأن الملك قد أودى فرا لا

ولم يكن للجوارى فى ذلك المهد شأن ولا خطر، فلم يُتخذن الا قهارم للخدمة
 أوسراى للاستيلاد ؛ وهم يسمون الجارية « جفن سلاح » تشبيهاً لها بفعد
 السيف الذى لا شأن له وانما الشأن لما فيه . وقد ابتكر لهم هذه التسمية همّام بن
 غالب الفرزدق فى قوله وقد ماتت جارية حامل له :

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
 وفى جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن المنايا أمهته لياليا

وكانوا ينكرون على الهُجَناء — أبناء الإماء — أن يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة ! وقد زجر هشام بن عبد الملك زيد بن علي عن طلب الخلافة بقوله « بلغني أنك تطلب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة !

وكان مَسامة بن عبد الملك أشجع اخوته وأبعدم همة ، ورغم ذلك دُفِع عن الخلافة دونهم لأنه هجين

وكانت المرأة العربية بفضل تلك العصبية العربية في الذروة والسَّنام من الإِعزاز والاکرام . فقد أصبحت تجر أذيال النعمة بين خدما ووصائفها وترفع أعلام العزة بين آلهَا وذويها من الخلفاء والأمراء والقادة والولاة وَمَن اليهم من كل ذى موقف مشهود ومقام محمود

ولم يؤثر ذلك النعيم الذى اجتَلتهُ المرأة العربية فى شىء من تقاء فطرتها ولاصفاء طبيعتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية أبنائها لأن العصبية العربية استبقت للرجل حميته وغيْرته وعفته ، والرجل مرآة المرأة

على أن هذه العصبية التى صانت نفوس العرب عن التهور فى ضلال الشهوات كانت مزلق الأمويين الى السقوط الذى لا قيام بعده

فان الفرس الذين أوطنهم العرب مواطن الخسف وأوردوهم موارد الهوان لم يطبقوا القرار على ذلك طويلاً . وكيف يطيقونه وهم أهل الرأى والعلم والتدبير والمدد ؟ وكيف يقرون وقد وجدوا فى صفوف العرب ثغرة يقاتلون منها الأمويين باسم الدين ؟ أو لم يتبع الأمويون سلالة النبی بالقتل والصلب والحبس والتشريد ؟ فمالهم لا يفضبون لآل النبی ويشورون بهم ويتخذون من دمائهم وأشلائهم سهاماً مسدودة على أعدائهم ؟ أو ليس قيص عثمان المخضب بدمه هو الذى جمع لمعاوية الجموع وساق له الجيوش حين نصبه للعيون بمسجد دمشق حتى لبس به قيص

الخلافة؟ إذا فلتكن الدماء المراقبة على بطحاء كربلاء هي التي تدك عروشهم دكاً! والفرس أعرف أم الشرق القديم بتدبير المكاييد وتنظيم الثورات، ولا تنس أن العصبة العربية أرجعت العرب إلى قديم أمرهم قبل الإسلام من فرقة وشتات، فبعد أن كانوا جميعاً قلباً واحداً تهزه كلمة واحدة وتدفعه عقيدة واحدة وتجذبها غاية واحدة أصبحوا شعوباً وقبائل! فهناك قحطان وعدنان، وهناك مضر وربيعة، وهناك قيس وتيم، وهناك فرعا قريش من أمية وهاشم، وكل منهم يفتخر بعزه القديم ومجده الصميم. وفي تفاريق هذه الفرقة جمع الفرس شملهم وألفوا وحدتهم وأحكموا مادتهم وجمعوا عديدهم ثم استاقوا الجيوش الزاخرة من إقليم خراسان فسارت حتى التقت بجيوش بني أمية على نهر الزاب ولم تكن إلا جولة بعد جولة حتى انتكث شمل الأمويين والتاثت صفوفهم وتبددت جماعتهم وفر خليفتهم حتى لقي مصرعه في مصر، وعلى أنقاض ذلك الملك الدابر قامت خلافة بني العباس

وكان ملك بني العباس ملكاً فارسياً يعلوه خليفة عربي، فالفرس هم ركن الخلافة ودعامتها، وهم ولاتها وساستها، وهم كفاتها وقادتها، وهم مشيروها ووزراؤها، وهم مفكروها وعلمائها، وهم كتابها وشعراؤها؛ وهم مُغنّوها وندماؤها. وانتقلت الخلافة من بلاد العرب إلى العراق الفارسي فأصبحت بغداد خلفاً من المدائن

وأراد الفرس أن يخدموا آخر جذوة من الحمية العربية وأن يقطعوا آخر عقدة من العصبة العربية فأجلبوا عليهم بكل ما يوهن النفوس ويُصبي القلوب من سماع وشراب وكواعب أتراب، وأغرقوهم في بحر طام من السرف والترف والزهو واللهو والمحارم والمآثم، ولم يعمض غير قليل حتى راح العرب يخطرون في مطارف الفرس ويلعبون في ملاعب الفرس ويشربون في مشارب الفرس ويتأدبون بأداب الفرس ويتخلقون بأخلاق الفرس. والمرأة والرجل كقوتي الكهرباء، إذا تأثر أحدهما تأثر الآخر، وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر

وكان لتلك المرأة منزلة في القلوب تمنوها الوجوه وتطمئن دونها النفوس، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة، فما كانت من ذلك في قليل ولا كثير، ولكنها كانت فيما تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح الى أبعد مرتقى، وصفاء النفس الى أتم غاية، وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وسناء، وعزة وكبرياء، وجلال في الطبع والخلق، وترفع في القول والفعل، واسعاد للزوج والولد، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التي جمعت أطراف الأرض وملكت نواحي الأم في أقل من خمسين عاماً. ومثل تلك المرأة اذا انحرفت عن المَحَجَّة وانثنت عن الغاية وأسَفَّت الى اللهو واستراحت الى الشهوات خمد منها روح السمو وانتهك عنها ستر الجلال، وذلك ما قاد المرأة العربية الى سفير الهاوية وكانت أمور صرفت الرجل العربي عن المرأة العربية بعد أن كانت عينه التي بها يبصر، ويده التي عليها يعتمد، ونفسه التي يشعورها يشعر، وقلبه الذي بوعيه يعي؛ فلما أحاطت شهوته بعقله وغلبت مجاته على دينه وجد عن امرأته مصرفاً، ثم ما زالت الصلة تهن والعقد تُحلّ حتى استحال عدواً لها يأخذ عليها مدارج أنفاسها ويحصى عليها لحظات عينها ونبرات صوتها وخطرات نفسها، وكان أشد ما فتن الرجل في نفسه وغلبه على عقله وصرفه عن امرأته ثلاثة أشياء

الأول - الجوارى اللواتي سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار
الثاني - الديارات^(١) التي بثها الروم والسريران وأشباههما في تفاريق البلاد
لصرف العرب أولاً عن قوميتهم وأخيراً عن دينهم
الثالث - ذبوع البغاء وأمثال البغاء في حواضر العراق
وسنختص كلا من هذه الثلاثة بكلمة تكشف عن حقيقته وتبين ما كان له من عمق الأثر وبعد الخطر في الرجل العربي والمرأة العربية

الجوارى

كل ما وراء العدو من نفس ومال فهو في الله أفاءه على المسلمين وولى أمره امامهم،
فان شاء تجاوز عنه ومن به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوى الحق فيه
وبحكم ذلك كانت بنات العدو ونسوته من مغانم الحرب فى كل بلد كان
للسيف حكم فتحه وامتلاكه

وقد خلص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على
اختلاف ألسنانهن وأجناسهن وأخطارهن، ومنهن الفارسيات والتركيات والأرمنيات
والجرجيات والشركسيات والروميات والبربريات والحبشيات، وفيهن بنات
الأكاسرة والقياصرة والأساورة والبطارقة من كل قاصرة الطرف ناعمة الكف
لم تبتد لها المهن ولم تتمهنها المحن

لم تلق بؤساً ولم يضرر بها عوز ولم ترجف مع الصالى إلى النار
وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وجهاً وأنداهن
صوتاً وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفى منهن من يشاء ويثيب
وزراءه وندماءه وخلصاءه بمن يشاء

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوارى ما روى ابن الأثير أن المتوكل
أهدى إليه فى يوم واحد عشرون ألف جارية، ولهنّ ولأشباههنّ بنى قصر
الجعفرى حين ضاقت بهن مقاصير قصر الخلافة فى بغداد

ومن حديث تلك الكثرة أن الرشيد أهدى إليه جارية رائعة الجمال فاحتفل
بها احتفالاً أخرج فيه من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفى جارية فى
أحسن زى وأتم حلية، واتصل الخبر بزوجه زيدة فالتهب صدرها غيظاً وغيرة،
وفزعت إلى عليّة بنت المهدي فصنعت لحناً بديعاً وخرجت هى وزيدة فى زهاء

ألفى جارية عليهن غرائب الثياب وكلهن ينشدن بصوت واحد ولحن واحد

منفصلٌ عني وما قلبي عنه منفصلٌ

يا قاطمي اليوم لمن نويت بعدى أن تصل

فطرب الرشيد وقام حتى استقبل زيدة وعليّة وقال لم أرَ كالיום قطّ !
يا مسرور ! لا تُبقين في بيت المال درهما إلا تثرته ، فكان مبلغ ما ثره يومئذ
سنة ألف ألف !!

وعلى هذا السنن من الكثرة سار الخلفاء ومن دونهم من ذوى النعمة والثراء .
وربما وقعت الفتاة الرُود في سهم الزاهد فيها الراغب في المال عنها فيبيعها من
المقين وهو يذهب بها الى جواريه فيجعلونها أحسن جلوة ويُرِيْنَهَا أنفس زينة ثم
يعرضها للراغبين في معرضه من سوق الجوارى أو يستبقها في بيته ليروّيها الشعر
ويُخرّجها في الغناء ، وبها ويمثلها تصبح داره مثابة القاصدين من الخلفاء ومن دونهم
ليستروحوامنهن بحسن الحديث وطيب السماع ، وربما رغب العظيم في اقتناء
أحداهن فبذل لصاحبها غاية ما يتمناه

وكان الجوارى أنفس ما يتهاذى به ذوو الأخطار ، وأفضل ما يثاب به الأدباء
والشعراء والسُمّار ، وبذلك انبثث في كل موطن وحللن في كل دار . وإذا ألمك
أن يسيّ العرب هذا العدد العديد من النساء فاعلم أنهن اللواتى سبين العرب ،
وملكن أزمتهم ، ووطئن أكتافهم ، واقعدن ظهورهم ، وضربن بينهم وبين نسائهم
بسور له باب ظاهره الحسن والدلال ، وباطنه الذل والوبال . ذلك أنهن أصبحن
عقدة تلك الحياة التى لم يعصمها دين ولم يُحِطْ بها رفق ولم يخاطبها وقار ، حياة
السرف والترف والشهوات واللذات . وكان لهن من وسائل امتلاك قلوب العرب
ما يروض كل عصى ، ويستقيد كل أبى ، ويستميل كل نافر ، ويستدل كل جامع ،

الجمال

وأوّل تلك الوسائل الجمال ، وأنت تعلم أن العرب فتحوا بلاداً ليس لبلادهم
شئ من صفاء جوها ، ولا رخاء عيشها ، ولا اعتدال اقليمها . ولا رقة نسيما ،
ولا انسجام نعيمها ، ولا ابتسام زهرها ، ولا ازدهاء شجرها . فما يمنع نساءها أن
يكنّ على سواء أولئك صفاء وبهاء ، وجمالاً واعتدالاً ؛ وقد احتوى الجميع بلدٌ واحد
وغدّتهن طبيعة واحدة ، ونفّحتهن نسمة واحدة

وكان من أيسر الأمور أن يُطلب الجمال المطلق في واحدة فإن لم يكن ففي
جماعة وهن من كثرة العدد واختلاف النوع على مثال ما رأيت

التجمل

وربما كان أفنّ للعقول من الجمال ، وأسبي منه للنفوس أن تحسن المرأة التجمل
في زيّها وزينتها ، وحديثها وإشارتها ، وعبّتها ودعابّتها ودلّها وخلّعتها ، وجلوسها
ومشيتها ؛ فتلك ضروب من الجمال لا يستوى النساء في تنسيقها ولا تأليفها .
وربما أخرجتها المرأة في غير مُخرّجها فأسأمت كل نفس وثقلت على كل روح ،
وقد تصيب بها مواضعها فتكون أمضى من الجمال سلاحاً ، وأعظم منه كيداً ؛
والمرأة الفارسية أقدر نساء الشرق القديم على استلاب قلوب الرجال . ولقد شاء
القدر أن تصارع المرأة الأجنبية ما في الرجل العربي من بداوة وحمة وعصبية فما
زالت تفوّق اليها من سهام الحسن المجلوب والجمال المخضوب ما مزق قوتها وأطفأ
جهرتها . ولقد لذه هذا الصراع لبنات الفرس حتى الحرائر اللواتي لم يُكتب عليهن
رق ولم يُفرض فيهن حق فكنّ يتزيّين بزي الجوارى ويدلّفن الى سوقهن !!
وعليهن الأوشحة والمصائب والأكاليل والتيجان ، وبأيديهن المراوح وقد كتب على

كل ذلك بالذهب والجواهر من غرر الشعر ما تحار فيه القلوب والأبصار. فما كتبه
إحداهن على جبينها بالمسك

كَتَبَتْ فِي جَبِينِهَا بِعَبِيرٍ عَلَى قَر
فِي سَطُورِ ثَلَاثَةِ لَعْنِ اللَّهِ مِنْ غَدَرٍ
وَتَنَاوَلْتُ كَفَّهَا ثُمَّ قَلْتُ اسْمَعِي الْخَبَرَ
كُلَّ شَيْءٍ سِوَى الْخَلِيَاءِ نَهْ فِي الْحُبِّ يَغْتَفِرُ

ومما كتبه أخرى على عصباتها
فما زال يشكو الحب حتى كأنما
فأبكي لديه رحمة لبكائه
تنفس في أحشائه وتكلما
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ومما كتبه أخرى
الكفر والسحر في عيني إذا نظرت
فإن لي سيف لحظ لست أنعمده
فأغربُ بعينك يا مغرورُ عَنْ عيني
من صنعة الله لا من صنعة القَيْنِ

ومما كتبه واحدة على هلال في صدرها
أفليتُ من حور الجنانِ وخُلقت فتنة من يراني

وربما ظهرت الجارية في زى فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت
المنطقة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها

ومما كتبه إحداهن على قلنسوتها
تأمل حسن جارية يحار بوصفها القمر
مذكّرة مؤنثة فهي أنثى وهي ذكر

وعلى حمائل سيفها

لم يكفه سيف بعينه
حتى تردى مرهفاً صارماً
يقتل من شاء بحديه
فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراه لابساً درعه
يخطر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه
أقتل من سيف بكفيه

وأشبه ذلك كثير

وممن وصف أسلوب الجوارى ، في العبث بقلوب الرجال فأحسن الوصف أبو عثمان الجاحظ في حديث مستفيض . ولا بأس أن نسوق اليك ما عفاً منه وشا كل موضوع الكتاب ، قال :

« إن القينة لا تكاد تناصح في ودها لأنها مكتسبة ومجيولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطها ، فإذا شاهدتها المشاهد رامتة باللحظ وداعبته بالنسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصباة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ، فإذا أحست بأن سحرها قد تغلب فيه ، وأنه قد تغفل في الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبتة تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها ، وبلت السحاء بريقها ، وأنه سبجها وشجوها في فكرتها ، وضميرها في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدًا على هواه ، ولا تنوى انحرافاً عنه ، ولا تريده لما له بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب في سلاسل طومار وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زير ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألحت في اقتضاء جوابه ، فإن أجيبته عنه ادعت أنها صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمير مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤاد دُ لَطول ما استبطأتها
فَضَحِكْتُ حين رَأَيْتُهَا وبكيت حين قَرَأْتُهَا
عني رأت ما أنكرت فبـَادرت عبراتها
أظلم نفسي في يديك حياتها ووفاتها

ثم تفتت حينئذ بـ

إِنَّ كِتَابَ الْحَيِيبِ نَدْمَانِي مُحَدِّثِي تَارَةً وَرِيحَانِي
أُضْحِكُنِي فِي الْكِتَابِ أَوَّلُهُ ثُمَّ تَمَادَى بِهِ فَأَبْكَانِي

ثم تجنّبت عليه الذنوب ، وتغايّرت على أهله ، ووصمته النظر الى صواجبها ،
وسقته أنصاف أقْدَاحِهَا ، وجَمَشْتُهُ بِمُضْوَضِ تَفَاحِهَا ، ومنحته من ريحانها ، وزودته
عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مِرْطِهَا ، وشظية من مضاربها ، وأهدت
اليه في النيروز تكة وسكرا ، وفي المهرجان خاتماً وتَفَاحاً ، ونقشت على خاتمها رسمه ،
وأبدت عند العثرة اسمه ، وغتته اذا رآته

نظرُ المُحِبِّ الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقاً اليه ، ولا تهناً بالطعام وجداً عليه ، ولا تمل — اذا
غاب — الدموع فيه ، ولا ذكرته إلا تنغصت ، ولا هفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها
قد جمعت قَيْنَةً من دموعها من البكاء عليه ؛ وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون
وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وَأَشْبَهُهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مَدَانِيَا

وعند الدعاء به قوله

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهبج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلي طائراً كان في صدرى

ادب الجوارى

بذلك وأشباهه استمكن الجوارى من شهوات العرب، وبقي أن يملكن عليهم مجال أرواحهم، ويأخذن عليهم سبل مشاعرهم، ويحففن بهم من كل نواحيهم. والعربي شاعر يهب الشعر قلبه وماله، طروب يهزه رزأم الناقة، ويبكيه نوح الحمام، وبلاذ فارس بما حبأها الله من حسن واشراق مشرق شمس الشعر، ومببط وحى الغناء؛ وليس ينقص الفتاة الفارسية إلا أن تروى الشعر العربي حتى تكون شاعرة ساحرة، ومغنية مضنية، وذلك ما أقبل عليه الجوارى ومؤدبوهن اقبالا لا حد له وكان المقيئون يحتازون الجارية فإن وجدوا منها لباقة فى اللفظ أو رخامة فى الصوت دفعوا بها الى المؤدبين والمغنين فيروونها الشعر ويلقنونها الغناء، فان تم لها هذان نبه شأنها، وتنافس ذوو السلطان فى ابتغائها والمغالاة بها، ولصاحبها من وراء ذلك ربح غير معدود، وحظ غير محدود.

وكانوا قبل عهد بنى العباس لا يعلمون الغناء الا الصفرة والسود، فلما ازدهر العهد العباسى وظهر ابرهيم الموصلى أخذ يختار الحسان ويعلمهن الغناء فكانت داره أشبه ما تكون بمعهد موسيقى يتخرج فيه حسان المغنيات، فاذا تم ذلك لهن أخذ يبيعهن من الخليفة أو الوزير بما يكفل له الفنى والجاه والحظ العظيم.

وفما فعله ابرهيم يقول أبو عينة

لا جزى الله الموصلى أباً إن حاق عتاً خيراً ولا احسانا
جاءنا مرسلأ بوحي من الشئ طان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الحُب يصبى القلوب والآذانا

ولم يمض غير قليل حتى ظهر فتيات الفرس فى ميدان الشعر العربى والغناء العربى يدافعن الشعراء والمغنين بالملناكب، وأخذن يفرغن على الشعر العربى حلة مذهبة

النسج ، واضحة النهج ، صفية الديباجة ، خفيفة الروح ؛ وفي مذاهبهن سار المرقون
من الشعراء ، أمثال ابراهيم بن العباس ، وعلى بن الجهم ، ومهيار الديلمي ، ومن
ذهب في مذاهبهم ودرج على آثارهم

وكان هذا العصر عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجواري ، يتندى الشاعر
ببيت من الشعر فتعارضه الجارية بمثله على وزنه وروية وفي بقية معناه ، وأكثر
ما تكون الغلبة للنساء ، فقد كنَّ أسرع بديهة وأرق طبعاً . ومن حديث ذلك أن
أعراياً ذهب الى عنان جارية الناطفي وصاحبة أبي نواس فقال : بلغني أنك تقولين
الشعر فقوليني بيتاً ، وكان السلولى الشاعر عندها فقالت قل أنت يا عم !! فقال السلولى
لقد جدَّ الفراق وعيل صبرى عشية عيرهم للبين زُمت

فقال الأعرابي

نظرت الى أواخرها ضحياً وقد بانت وأرض الشام أمت

فقالت عنان

كتمتُ هواكم في الصدر منى على أن الدموع على نمت

فقال الأعرابي أنت والله أشعرنا ولولا أنك بحرمة رجل لقبلتك ، ولكنى

أقبل البساط

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل

بيتاً غريب القافية ليمجزها فقال

لاذ بها يشتكى اليها فلم يحذ عنها ملاذا

فما لبثت أن قالت

ولم يزل ضارعا اليها تهطل أجفانه رذاذا

فما تبوه فزاد عشقا فمات وجداً فكان ماذا

وسنسوق اليك في حديث الشواعر والمغنيات من ذلك شيئاً كثيراً
ومن فضل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن
بين الشعر والغناء ، فكانت الجارية تقول الشعر ثم تُوقعه ثم تتغنى به فتخرجه
أحسن مخرج وتؤثر به أنفذ تأثير

بذل

ومن هؤلاء بذل المغنية جارية جعفر بن موسى الهادي ، وكانت أستاذة كل
محسن ومحسنة ، وكانت فيما ذكروا أروى خلق الله للغناء وأخبار المغنين ، ومن قولها
إنها تروى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب جمعت فيه اثني عشر ألف صوت ويقال
إنها كتبت في يوم وليلة ! وهو قول ظاهر الغلو على أنه دليل على ما بلغت في قها من
سمو وبعد غاية

وكان كل مغن يصف نفسه بالسبق في فنه والتفرد في احسانه إلا بين يدي
بذل ، فهناك يتضائل نخره ويلتبس سبيله حين تأخذ عليه نواحي الفن فلا يجد
عنها مصرفاً ولا محيداً

وكان ابراهيم بن المهدي سيد أهل الغناء يعظمها ويتوافى لها ثم تغير بعد ذلك
استغناء بنفسه عنها فصارت إليه فدعا بعود فغنت في طريقة واحدة وإيقاع واحد
وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف ابراهيم منها صوتاً واحداً ، ووضعت العود
وانصرفت فلم تدخل داره حتى طال عناؤه فيها وطلابه لها وتوسله اليها

ومن حديثهم أن شيخ المغنين اسحاق بن ابراهيم الموصلي خالف بذلاً في نسبة
صوت غتته في حضرة المأمون فأمنسكت عنه ساعة ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت
اسحاق عن صانعها فلم يعرفه ، فقالت للمأمون يا أمير المؤمنين هي والله لأيه أخذتها
من فيه ! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أيه فكيف يعرف غناء غيره ؟ ! فاشتد ذلك
على اسحاق حتى رُئي في وجهه

وكانت بذل لجعفر بن موسى الهادي فوصفت لمحمد الأمين في عهد خلافته فبعث إلى جعفر يسأله أن يزيره بذلاً فلم يفعل، فوافاه الأمين في منزله فسمع من الغناء ما لم يسمع مثله قط، وأحب الخليفة أن تكون له بذل فاستأها من ابن عمه فقال جعفر ياسيدى مثلى لا يبيع جارية قال هبها لى قال هى مدبرة فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بذل إلى حرّاقته وانصرف بها، فلما أفاق جعفر سأل عنها فأخبر الخبر فسكت، فبعث إليه الأمين من غده فجاء وبذل جالسة فلم يقل شيئاً فلما أراد أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حرّاقة^(١) ابن عمى دراهم فأوقرت فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم، ووهب لها الأمين من الجوهر ما لم يملك أحد مثله وبعد مقتله رغب إليها وجوه القواد والكتاب وبنى هاشم في التزويج فأبت وأقامت في موطن الإجلال من الخلفاء والأمراء وصدور الدولة حتى ماتت

عنان

وهى أحسن شعراء دهرها بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً وكل ذلك فى رقة وجمال قلّ أن يكونا لغيرها، وهى من مولدات اليمامة وبها كانت نشأتها ثم اشتراها الناطقى أحد المقيّنين فى بغداد فكان يئته من أجلها مندى العظماء والشعراء والعلماء. وكان أمراء الشعر يأتونها فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزها بما لم يخطر لهم على بال ومن حديث مروان بن أبى حفصه شاعر المهدي والرشيّد أن الناطقى لقيه فدعاه إلى بيتهم فانطلق معه، ودخل إلى عنان قبله، فقال لها جئت بك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصه، وكانت تشكو علة، فقالت إني عن مروان فى شغل فأهوى إليها بالسوط، وقال لمروان ادخل فدخل وهى تبكى ورأى الدمع ينحدر من عينها فقال بكى عنان فجرى دمعها كالدر إذ ينسلّ من خيطه

(١) الحرافقة سفينة فيها مراى نيران يرمى بها العدو

فقال مسرعة

فليت من يضربها ظالماً تجفّ يماه على سوطه

فقال مروان أعتق ما أملك إن كان في الجن والانس أشعر منها

وقيل ان الرشيد جلس ليلة ومعه سُمّاره ، ففناه بعض من حضر من المغنين
بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

فطرب لها الرشيد طرباً شديداً ، وقال جلسائه هل منكم من يُحيز هذه الأبيات ،
وله هذه البدره — وبين يديه بدرّة من دنانير^(١) — فلم يصنعوا شيئاً ، فقال خادم
من خاصة خدمه ، أنا بها لك يا أمير المؤمنين ، قال شأنك ، فاحتمل البدره ، ثم أتى
الناطق فقال استأذن لى على عنان ، فدخل وأخبرها الخبر ، فقالت ويحك وما الأبيات ؟
فأنشدها إياها ، فقالت أكتب

هيجت بالقول قد الذى قلته داء بقلبي ما يزال كميناً

قد أينعت ثمراته فى روضها وسقين من ماء الهوى فروينا

كذب الذين تقوّلوا يا سيدى أن القلوب إذا هوين هويناً

فدفع اليها البدره ورجع إلى هرون ، فقال له ويحك من قالها ، قال عنان جارية
الناطقى فقال حلت الخلافة من عنقى إن باتت إلا عندى فاشترها منه بثلاثين ألفاً
وقال احمد بن معاوية ، تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدى أن
أجد من يحيزه ، فلم أجد ، فقال صديق لى عليك بعنان جارية الناطقى فأتيها
فأنشدتها البيت وهو

وما زال يشكو الحب حتى رأته تنفس من أحشائه وتكلما

فلم تلبث أن قالت :

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ودخل عليها أبان بن عبد الحميد وأبو العباس بن رستم وهي في خيش ، فقال لها
أبان : العيش في الصيف خيش . فقالت مسرعة : إذ لا قتال وجيش ، فأنشدها
أبو العباس بن رستم قول جرير

ظَلِمْتُ أَوَارِي صَاحِبِي صَبَابِي وَقَدْ عَلِقْتَنِي مِنْ هَوَاكَ عُلُوقِ
فَقَالَتْ مُسْرَعَةً

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نطوق
ولعنان مع أبي نواس فصول طوال ، كان يتعرض لها بما يظنه أن يجرها فتد
عليه بما يفحمة ويقهره . وقد صرفنا القول عما تجاذباه من الشعر لأن أكثره مما
يند على السمع لهجره ومجاته

ومن حديث الجد بينهما أنه دخل عليها وهي جالسة تبكي لما أصابها من ضرب
الناطقي ، فأوماً هذا إلى أبي نواس أن يكلمها فقال أبو نواس
عنانُ لو جدت لي ! فأتني من عمرى في « آمن الرسول بما »^(١)
فَقَالَتْ :

فان تمادى ولا تماديت في قطعك حبل أكن كمن ختما
فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ

عَلِقْتُ مَنْ لَوْ أَتَى عَلَى أَنْفُسِ الْمَاضِينَ وَالْفَائِرِينَ مَا نَدَمَا
فَقَالَتْ :

لو نظرت عنها إلى حجر وَلَدَ فِيهِ فتورها سقما

(١) يقول أنه يتسنى جودها بالرضا لأنه في آخر مرحلة من الحياة كما أن هذه الآية الكريمة « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه . . . » في آخر سورة البقرة ، فقالت في بيتها الثاني تنمة لكلامه أنها إذا تمادت ختم عمره كما تختم هذه الآية .

بَصْبَصْ

جارية أوتيت كثيراً من ملاحاة الوجه وسحر الغناء . تلقت صناعتها عن الطبقة الأولى من المغنين . وكانت في رق يحيى بين نفيس ، وكان يحيى صاحب قيان . يُرويهن الشعر ويعلمهن الغناء ، ومن أجل ذلك كانت داره بالمدينة مهبطاً للوجود والأشراف ، ووُصفت للمهدى وهو ولي عهد فاشتراها بسبعة عشر ألف دينار . وقيل انه استولدها ابنته عُلَيَّة . وكان عبد الله بن مصعب حفيد ابن الزبير يأتيها بالمدينة في قتيان قريش فيستمع منها ، وكان من أشد الناس إعجاباً بها ، وفيها يقول حين قدم المنصور منصوراً من الحج ومر بالمدينة

أراحل أنت أبا جعفر	من قبل أن تسمع من بَصْبَصَا؛
هيهات أن تسمع منها إذا	جاوزت العيس بك الأعوصاً ^(١)
نخذ عليها مجلسي لذة	ومجلساً من قبل أن تشخصا
أحلف بالله يميناً ومَن	يحلف بالله فقد أخلصا
لو أنها تدعو إلى يعة	بإيعتها ثم شققت العصا

وما كان أجراً ذلك الفتى القرشي على المنصور وهو الذي لا تأخذه في سفك الدماء ملامة ولا يثنيه عنها حرج ، ولقد بلغ المنصور هذا القول فاشتد غضبه . ودعا الشاعر وقال له : أما إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن .
العصا^(٢) حتى صرت أنت آخر الحمقى ، تباع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم .

(١) الأعوص منزلة في طريق المدينة (٢) يشير المنصور إلى حوادث اتحد فيها رجل هذا البيت إلى رأى النساء وأولها اقياد الزبير بن العوام إلى رأى سيدة النساء فاطمة الزهراء حين غاضبت أبا بكر وجانبته فامتنع الزبير عن بيعته مرضاة لها حتى توفيت . ومنها اقياد عبد الله بن الزبير إلى رأى أمه أسماء حين دفعته إلى النفي في قتال الحجاج حتى الموت وكان مصعب بن الزبير لا يبرم أمراً إلا اذا استشار احدى زوجتيه عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين

وفي بصيص يقول هرون بن محمد بن عبد الملك

بصيص أنت الشمس مزدانة فان تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود في مشهد وعاونت يمني يديها الشمال
غنت غناء يستقر الفتى حذقاً وزان الحذق منها الدلال

ومن شغف بهذه الجارية من أبناء الأشراف ، محمد بن عيسى الجعفري ، وقد
هام بها طويلاً ثم لما عز عليه طلابها سلى نفسه بعض السلوعنها ، ومن حديثه أنه
قال لصديق له لقد شغلتنى هذه الجارية عن صنعتي وكل أمرى ، وقد وجدت مَسَّ
السلوعنها ، فاذهب بنا إليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح ، فأتيهاها ، فلما غتبتها
قال لها محمد بن عيسى : أغنين

وكنت أحبك فسلوت عنكم عليكم في دياركم السلام
فقلت : لا . ولكنى أغنى

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العفاء
فاستحيا محمد ، ويدل بالسلوكلفاً ووجدأ ، وأطرق ساعة ثم قال لها : أغنين
وأخضع بالعبي إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتصل
قالت : نم . وأغنى أحسن منه

فان تقبلوا بالود تقبل بمثله وتنزلكم منا بأقرب منزل
فتقاطما في يتين وتواصلنا في يتين ، وما شعر بهما أحد

وحضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بصيص فغنت

قلبي حبيس عليك موقوف والعين عبّرى والدمع مذروف
والنفس في حسرة بنصتها قد شفت أرجاءها التساوير

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فاني بالهوى لموصوف
يا حسرتا حسرة أموت بها إن لم يكن لي اليك معروف
فطرب أبو السائب ونمر، وقال لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك، ثم
أخذ قناعها من رأسها ووضعهُ على رأسه وجعل يبكي ويلطم ويقول لها بأبي أنت،
والله إني لأرجو أن تكوني عند الله أفضل من الشهد لما تُنَوِّيناه من السرور،
وجعل يصيح : واغوثاه ! يا لله ما يلتقي العاشقون !

وحدث عثمان بن محمد الليثي قال : كنت يوماً في منزل ابن نقيس فخرجت
الينا جاريته بصبص، وكان في القوم فتى يحبها، فسأله حاجة، فقام ليأتيها بها،
ففسى أن يلبس نعله، ومضى حافياً، فقالت له يا فلان نسيت نعلك، فرجع فلبسها
وقال : أنا والله كما قال الأول

وحبك يُنسيني عن الشيء في يدي وشغلني عن كل شيء أحاوله
فأجابته فقالت

وبي مثل ما تشكوه مني وإنني لأشفق من حب لذاك تزايله

دنانير

وهو اسم لجاريتين

أما الأولى فجارية، ومحمد بن كناسة، وكان ابن كناسة شاعراً في الطبقة الثانية
من شعراء العهد العباسي، وكانت جاريته في مثل طبقته منهم، ومن حديثها
ما رواه المروزياني عن بعض شعراء الكوفة، قال : قال لي محمد بن كناسة اشتهت
دنانير أن تنظر الى الحيرة فهل لك أن تساعدنا ؟ وكان الزمان ربيعاً، فقلت نعم، فقال
تَقَدَّمْنَا لِلنَّحْقِ بِكَ، فقصدت الخورنق، وجلست في بعض المواضع المشبة،

وإذا به قد أقبل على بغلة ، ومعه دنانير على حمار ، فترلا وجلسنا ، وقد سترت بعض وجهها عني ، فقلت أداعبها - وكان محمد يأنس بي ويسكن الى - انما تسترين وجهك عن شيخ ، فقلت : طماح العين ، فضحكنا ، ثم أخذنا ننظر الى رياض الحيرة وبقاعها وتذكر ما مضى بها من الزمان ونستحسن حمرة الشقائق على ائتلاف تلك الأنوار والألوان ، فأخذ محمد عوداً وكتب على الأرض :

الآن حين تزيّن القطر انجاده ووهاده العفر

فقلت أحسنت وكتبت

برية في البحر نابتة يُحَيِّ إليها البر والبحر
فكُتِبَتْ

وسرى الفرات على مياسرها وجرى على أيمانها النهر
وبدا الخور تنق في مطالعها فرداً يلوح كأنه الفجر
كانت منازل للملوك ولم يُعمل بها لملك قبر

أقول ومن أشرف الشعر وأجزله وأزهره قولها تخاطب أبا الشعثاء ، وكان رجلاً غليظاً مزاحاً ، وكان يدخل الى ابن كناسة يسمع غناءها ويعرض لها بأنه يهواها

لأبي الشعثاء حب كامن ليس فيه نهضة للمتهم
يا فؤادي فازدجر عنه ويا عبث الحب به فاقعد وقم
زارني منه كلام صائب ووسيلات المحبين الكليم
صائد تأمنه غزلانه مثل ما تأمن غزلان الحرم
صلّ إن أحبيت أن تُعطى المنى يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك يوم الحشر في جنة الخلد ان الله رحم

وأما الثانية لجارية جعفر بن يحيى ، وكانت أُنْبه من الأولى ذكراً وأبدع شعراً وأتم ظرفاً وكِلاً ، وأزهى حسناً وجمالاً ، وأكثر رواية وإطلاعاً ، وأدق لحناً وإيقاعاً ، وكانت لرجل من أهل المدينة وهو الذى خرّجها فى الأدب والغناء ، فلما رآها جعفر بن يحيى وقعت بقلبه فاشتراها ، وكان الرشيد يسير الى دار جعفر ليسمعا ويتحدث اليها حتى ألفها واشتد إعجابه بها فكان لما يشعر من شغفه بها وتزوجه اليها لا يطيق الصبر عن المسير اليها ، وكان يره بها والطافه لها مما ضرب به الأمثال ، ومن ذلك أنه وهب لها ذات ليلة عقداً بثلاثين ألف دينار ، وعلمت زيدة كل ذلك فأحزنها ودفعها الى شكوى الرشيد الى عمومته فصاروا اليه جميعاً فعاتبوه فقال مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وأنا أربى فى غنائها فاسمعوها ، فإن استحققت أن يؤلف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم . فنقلهم الى يحيى حتى سمعوها عنده فأولوه جانب العذر وعادوا الى زيدة فأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها فقبلت ذلك وأهدت الرشيد عشرين جوارلعه يسلمو بهن عنها — ومنهن مارية أم المعتصم ومرآحل أم المأمون ، وماردة أم صالح .

ومما حدث به ابرهيم الموصلى : قال لى يحيى بن خالد ، ان ابنتك دنانير قد عملت صوتاً اختارته وأعجبت به فقلت لها : لا يشتد إعجابك حتى تعرضيه على شيخك فان رضيه فارضيه لنفسك . وان كرهه فاكروهه ، فامض حتى تعرضه عليك ، فقلت له أيها الوزير فكيف إعجابك ، فانك والله ثاقب الفطنة صحيح التمييز قال أكره أن أقول لك أعجبنى فيكون عندك غير معجب إذ كنت عندى رئيس صناعتك تعرف منها ما لا أعرف وتتقف من لطائفها على ما لا أقف ، وأكره أن أقول لك لا يعجبني وقد بلغ من قلبى مبلغاً محموداً ، وانما يتم السرور به اذا صادف ذلك منك استجادة وتصويماً ، قال : فضيت اليها ، وقد كان تقدم الى

خدمه يعلمهم أنه سيرسل بي الى داره ، فأدخلت ، واذا الستارة قد نصبت ، فسلمت على الجارية من وراء الستارة فردت السلام وقالت : يا أبت أعرض عليك صوتاً قد تقدم ولا شك اليك خبره ، وقد سمعتُ الوزير يقول ان الناس يُفتنون بغنائهم فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم كما يفتنون بأولادهم فيحسن في أعينهم منهم ما ليس يحسن ، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك ، فقلت هات ، فأخذت عودها وتغنت تقول :

نفسى أكنتُ عليك مدعيًا أم حين أزمع بينهم خُنتِ ؟
ان كنتِ مُولمةً بذكرهم فعلى فراقهم ألا مُتِّ ؟
قال فأعجبني والله غاية العجب ، واستخفني الطرب حتى قلت لها أعيديه فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه ، وأغيره عليها ، لتأخذه عني ، فلا والله ما قدرت ، ثم قلت لها أعيديه الثالثة ، فأعادت فاذا هو كالذهب المُصَفَّى ، فقلت أحسنت يا بنية ، وأصبت ، وقد قطعت بحسن إحسانك ، وجودة اصابتك ، ثم خرج ، فلقبه يحيى ، فقال : كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير قال : أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه ، وأعادته على مرات ، كل ذلك أريد إعانتها لأجتلب لنفسي مدخلا يؤخذ عني ، وينسب إليّ ، فلا والله ما وجدته

وإذا شئت أن تعرف ما لهذه الجارية من بعد الشأو في الشعر ، ولطف المدخل في الغناء ، فاليك قول جحطة البرمكي « كنت أنا وابن جامع نعانى دنانير جارية البرامكة فكثيراً ما كانت تغلبنا » وكلا هذين الرجلين قطب من أقطاب الغناء ، في الدولة العباسية ، وعلم من أعلامه

ومن حديث وفائها لمواليها ، أن الرشيد دعا بها بعد أن أوقع نكته بالبرامكة ، فأمرها أن تغنى ، فقالت يا أمير المؤمنين ، إني آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً .

فغضب وأمر بصفعها فصفعت ، وأقيمت واقفة ، وأعطيت العود ، فأخذته وهي
تبكي أحر بكاء ، واندفعت ففتحت

يا دار سلمى بنازح السند من الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست أيقنت أن النعيم لم يعد
فرق لها الرشيد وأمر باطلاقها ، فانصرفت

ولدنابر كتاب في الغناء يعده أهل هذا الفن أصلاً من أصوله ، ومرجعاً
من مراجعه

عَرِيب

وهي فتنة هذا العصر، وعقدة سحره، وملتقى بدائعه، ومجتمع نوادره. نشأت في
دار جعفر بن يحيى البرمكي، وقيل إنها ابنته من إحدى جواريه، ثم جحد البرامكة
نسبتها، وبيعت فيمن بيع من جوارى جعفر بعد نكته. ثم احتازها ثمانية من
خلفاء هذه الدولة، أولهم الأمين، وآخرهم المعتز، وما منهم إلا من يعدها زينة
قصره، وآية عصره، واليها اجتمعت محاسن هذا الجيل، وفيها انتظمت مواهبهم،
من حسن خط، وحلاوة شعر، وجمال صورة، وغاية ظرف، وجودة ضرب،
ودقة غناء. وفيها يقول اسحاق الموصلي « ما رأيت امرأة أضرب من عريب،
ولا أحسن صنعة، ولا أجمل وجهاً، ولا أخف روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولا
أسرع جواباً، ولا ألب بالشطرنج والبرد، ولا أجمع لخصلة حسنة؛ لم أر مثلاً
في امرأة غيرها » واسحاق إمام أئمة هذا الفن، وشهادته لها مقطع الرأي وفصل
الخطاب، وقد ذكر هذه الشهادة حماد بن اسحاق لقاضي القضاة يحيى بن أكرم
فقال: صدق أبو محمد، هي كذلك، قال أسمعته، قال نعم هناك « يعني في
دار المأمون » قال: أفكانت كما ذكر أبو محمد في الحذق، قال يحيى: هذه مسألة
الجواب فيها على أيك، هو أعلم بها مني

وكان المأمون مشغولاً بجبها، وقد ذكر صاحب نهاية الأرب أنه خلع في جبها عذار الخلافة حتى قبل مرة قدمها، وقد نُسبت هي إليه فقبل لها عريب المأمونية، وكان اسحاق قد وصفها له قبل أن تصير إليه فأمره أن يشتريها بمائة ألف درهم، وأعطى اسحاق في وساطة شرائها مائة ألف أخرى. قال ابراهيم بن رباح — كاتب ديوان المأمون — فلما أردت أن أثبت هذا القدر من المال كتبت إن مائة الألف خرجت في ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائفها ودلالها، فجاء الفضل بن مروان — الوزير — الى المأمون، وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت نعم، هو ما رأيته، فسأل المأمون عن ذلك فقال: وهبت لدلال وصائف مائة ألف درهم! وغلظ القصة، فأنكرها المأمون، ودعاني، فدنوت، وأخبرته أن المال الذي خرج في ثمن عريب، وصلة اسحاق وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين، ما فعلت، أم أثبت في الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن؟ فضحك المأمون وقال: الذي فعلت أصوب، ثم قال للفضل بن مروان يا نبطي لا تعترض على كاتبني هذا في شيء.

وما أظن امرأة بلغت في هذا العصر من نباهة الشأن وبعد الشاؤ ما بلغت عريب، بل لا أظن مغنية في أي عصر من العصور نالت من الخطوة والجاه بين صدور الدولة وأعوان الخليفة ما بلغت هذه المرأة الممتازة بين النساء.

ومن حديث ابراهيم بن محمد اليزيدي أحد أصحاب المأمون قال: كنت مع المأمون في بلد من بلاد الروم، فبينما أنا في ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح، والى جانبي قبة، فبرقت برق، وإذا في القبة عريب، قالت: ابراهيم بن اليزيدي؟ قلت لييك! قالت قل في هذا البرق أياناً ملاحاً لأغني فيها، فقلت

ماذا بقلبي من أليم الخفقِ إذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردن أو دمشق لأن من أهوى بذاك الأفق

خالفته وهو أعز الخلق على والزور خلاف الحق
ذاك الذي يملك منى رقى ولست أبغى ما حيت عتقى

قال فتنفست نفساً ظننت أنه قطع حيازيمها ، فقلت ويحك ! على من هذا ؟
فضحكت ، ثم قالت : على الوطن ، فقلت هيهات ! ليس هذا كله للوطن ، فقالت
ويلك ! أفتراك ظننت أنك تستفزنى ! والله ، لقد نظرتُ نظرة مريبة في مجلسي ،
فادعاها أكثر من ثلاثين رئيساً ، والله ما علم أحد منهم لمن كانت الى هذا اليوم
وكان بينها وبين ابرهيم بن المدبر أحد ولادة الدولة وكتابها وسراتها صعبة صادقة
وود مكين ، لم يحاوز ود الأديب للأديب ، ثم حدث عتب فاحتجبت عنه ،
وجد به الشوق والحنين اليها ، وقال في ذلك — وهو مما يتغنى به : —

إلى الله أشكو وحشتى وتفجعى وبعد المدى بينى وبين عريب
مضى دونها شهران لم أخلُ منهما بعيش ولا من قربها بنصيب
فكنت غريباً بين أهلى وجيرتى ولست إذا أبصرتها بغريب
وان حبيباً لم ير الناس مثله حقيق بأن يفدى بكل حبيب

وحدت أن اجتمع ابرهيم بن المدبر وعبد الله بن حمدان وابن منارة والقاسم
في بستان بالمُطَيِّرة في يوم غيم يقطر أحسن قطر ، ويُجْتَلَى فيه أطيب العيش ،
قال عبد الله بن حمدان فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب ابرهيم
ابن المدبر من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقبل الأرض
بين يديها ، فجاءت وجلست ، وأقبلت عليه متبسمة ، وقالت : إنما حننتُ إلى مَنْ
هنا لا إليك ، فاعتذر لها . وقال :

بأبى من حقق الظن به فأتانا زائراً مبتديا
كان كالغيث تراخى مدة وأتى بعد قنوط مُرويا

طاب يومان لنا في قربه بعد شهرين لهجر مضيا
فأقر الله عيني وشقي سقماً كان لجسمى مبلياً

وقال فيها :

ألا يا عريب وقيت الردى وجنبك الله صرف الزمن
فإنك أصبحت زين النساء وواحدة الناس في كل فن
فقربك يدنى لذيد الحياة وبعذك ينقى لذيد الوسن
فعم الأنيس ونعم الجليس ونعم السмир ونعم السكن

ثم قال فيها وفي جاريتهما بدعة وتحفة

ان عريباً خلقت وحدها في كل ما يحسن من أمرها
ونعمة الله في خلقه يقصر العالم في شكرها
أشهدني جارتها على أنهما محستا دهرها
فبدعة تبعد في شجوها وتحفة تتحف في زمرها
يارب أتعما بما خولت وامدد لنا يارب في عمرها

وكانت عريب على موعد من زيارة ابراهيم ، فلما كانت في صباح يوم الموعد لم تجد نشاطاً للزيارة ، فأرسلت إليه بدعة وتحفة تحملان منها هذه الرسالة :

بنفسى أنت وسمى وبصرى — وقلّ ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً
طيب الله عيشك — قد احتجبت سماءه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، وكأنه
أنت في رقة شمائلك ، وطيب محضرك ومخبرك ، لا فقدت ذلك منك ، ولم يصادف
حسنه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأموار صدّتنى عن ذلك ، أكره تنقيص ما أشتهيه
لك من السرور بشرحها ، وقد بعثت اليك بدعة وتحفة ليؤنسك وتُسّر بهما ،
سرك الله وسرني بك

فكتب اليها

كيف السرور وأنت نازحةٌ عني وكيف يسوغ لي الطرب
إن غبت غاب العيش وانقطعت أسبابه وألحّت الكُرب
وابتداً الجواب، فلم تلبث أن جاءت على حمار فبادر اليها وتلقاها خافياً حتى جاء
بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بساطه وما عليه حتى أخذ بركابها فأجلسها في مجلسه
وجلس بين يديها، ثم قال :

ألا ربَّ يوم قصرَ الله طولهُ بقرب عريب، حبذا هو من قرب
بها تحسن الدنيا وينعم عيشها وتجتمع السراء للعين والقلب
وكان يُطيف الخاطر بعريب فتقوله شعراً ثم تصوغه لحناً ثم تَوَقَّعه غناءً يستطير
قلب الحكيم ويستخف وقار الحليم، ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها
لو كان يقدر أن يبيثك ما به لرأيت أحسن عاتب يتعجب
حجبوه عن بصري فمُثِّل شخصه في القلب فهو محجب لا يحجب
ومنه

أما الحبيب فقد مضى بالرغم مني لا الرضا
أخطأت في تركي لمن لم أُلْفَ عنه مُعرِضا

ومنه

إذا كنت تحذر ما تحذرُ وتزعم أنك لا تجسر
فألى أقيم على صبوتي ويوم لقائك لا يقدر

ومن بديع إجازتها للشعر وتضمينها إياه، ما حدّث على ابن المنجم، قال :
دخلت يوماً على عريب مسلماً عليها، فأما جلست هطلت السماء بنظر عظيم،
فقالَت أُمّ عندي اليوم حتى أغنيك أنا وجواري وابعث إلى من أحببت من

أخوانك، فأمرتُ بدواي فردت، وجلسنا نتحدث، فسألتني عن خبرنا بالأمس في مجلس الخليفة «الواثق» ومن كان يغنينا وأى شيء استحسناه من الغناء، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لنا صناعه بنان (المغنى) من الماخورى «وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والايقاع» فقالت وما هو؟ فقلت:

تَجَافَى ثُمَّ تَنْطَبِقُ جَفَوْنَ حَشَوُهَا الْأَرْقَ
وَذَى كَلَفٍ بَكِي جَزَعًا وَسَفَرُ الْقَوْمِ مَنْطَلِقُ
بِهِ قَلْقُ يُكَلِّمُهُ وَكَانَ وَمَا بِهِ قَلْقُ
جَوَانِحِهِ عَلَى خَطَرٍ بِنَارِ الشَّوْقِ تَحْتَرِقُ

فوجهت عريب رسولاً الى بنان فحضر وقد بلّته السماء، فأمرتُ بخلع فاخرة خلعت عليه، وقُدم له طعام فأكل، وجلس يشرب معنا، فسألتُه عن الصوت فغناها إياه، فأخذت دواة ورقعة وكتبت:

أَجَابَ الْوَابِلَ الْفَدِيقَ وَصَاحَ التَّرْجِسَ الْفَرَقَ
وَقَدْ غَنَى بِنَانُ لَنَا «جَفَوْنَ حَشَوُهَا الْأَرْقَ»
فَهَاكَ الْكَأْسَ مَرْتَعَةً كَأَنَّ خَتَامَهَا حَدَقَ

قال على بن المنجم: فما شربنا يوماً الا على هذه الأبيات ومن عجيب وفاء عريب لفنّها، ونسيان ذاتها في سبيله ما حكاه صالح بن على ابن الرشيد قال: تمارى خالى ابو على والمأمون في صوت، فقال المأمون أين عريب؟ فجاءت وهى محمومة، فسألها عن الصوت فقالت فيه بعامها، فقال لها غنيه، فقلت لتجىء بالعود، فقال غنيه بلا عود، فاعتمدت من الحتمى على الحائط وغنت، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لسبت يدها مرتين أو ثلاثاً فما نحت يدها ولا سكنت حتى فرغت من الصوت، ثم سقطت وقد غشى عليها

ومن بديع منطقها ما حدثوا أن المأمون عتب عليها فهجرها أياماً ، ثم اعتلت فعادها ، فقال كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون الى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال : أترى لو كان هذا من كلام النّظام ألم يكن كثيراً ؟ ولما قبل المأمون قدمها قالت : والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرفها الله من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها ، ولكن لله علىّ ألاّ أغسلها لغير وضوء أو طهر الا بماء الورد ما عشت . فكانت تفعل ذلك الى أن ماتت

فضل

وعزيز علينا أن نجمل القول عن فضل في صفحة أو صفحتين فان في ذلك لإجمال مظامة للأدب العربي لا يبلغها العذر

نشأت فضل بالبصرة في دار شاعر من بني عبد القيس ، وبالبصرة تأدبت وتخرجت ثم اشترت وأهديت إلى المتوكل ، وكانت في الغاية العليا من قسامة لوجه ، وحلاوة الطبع ، وحسن البديهة ، وظرف الحديث ، أما الشعر فمعي فيه نسيج وحدها ، بل إنك لا تجد لها في شواعر النساء ضرباً منذ جرى على ألسنتهن الشعر ، وكان عصر المتوكل عصر الشعر الساحر الذي ينبعث عن الطبع الرقيق ، وقد اجتمع فيه من الشعراء المُرَقِّقين ذوى الديباجة المذهبة والأسلوب الغنائى لبديع ما لم يجتمع في عصر من العصور ، ففيه ظهر البحتري وسعيد بن حميد وعلي بن الجهم وبرهيم بن العباس وابن الرومي وأشباههم . وفيه ظهرت فضل ما قصرت عن هؤلاء جميعاً ، وكثيراً ما تقدمتهم في الشعر الغنائى الذى يعتمد على رط الرقة وقوة التأثير ، وكمن من الشعراء من يحسن أن يقول :

الصبر ينقص والسَّقام يزيد والدار دانية وأنت بعيد
أشكوك أم أشكو إليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود

ومن ذا الذي يستمع قولها في المتوكل يتغنى به

إن من يملك رقى مالك رقى الرقاب
لم يكن يا أحسن العا لم هذا في حسابي

ثم لا تيمد به النشوة ويستخفه الطرب

وهل يحسن البحتري وأشباه البحتري أن يقولوا خيراً مما تقول فضل

لأكتنم الذي بالقلب من حرق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هي الياس
ولا أبوح بشيء كنت أكتمه عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

وأنظر الى استراضة الشعر لها ، وانسياغه على لسانها يوم أهديت الى المتوكل
فقال لها أشاعرة أنت ؟ فقلت كذا زعم من باعني واشتراني ، فضحك وقال أنشدنا
من شعرك ، فقلت :

استقبل الملكَ أمام الهدى عام ثلاث وثلاثين
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرين
انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك الناس ثمانين
لا قدس الله أمرا لم يقل عند دعائي لك آمينا

وكانت فضل مضرب المثل في حسن البديهة وقوة الارتجال

ومما حدث ابن أبي طاهر أن بعض الشعراء ألقى عليها قوله

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقلت مسرعة

فوالله ما يدرى أتدرى بما جنت على قلبه أم أهلكته وما تدرى

ومن حديث الفضل بن العباس الهاشمي أن المتوكل خرج متوكلًا على جاريته فضل وبنان، فقال لهما أجيذا قول الشاعر

تعلمت أسباب الرضا خوف سخطه وعلمه حي له كيف يغضب
فقلت فضل

تصد وأذنو بالمودة جاهداً ويبعد عني بالوصال وأقرب

وقالت بنان

وعندي له العتي على كل حالة فما منه لي بدّ وما منه مذهب

وكانت فضل على بعد مرآها في الشعر بعيدة الغاية في النثر، ومما قاله إبراهيم ابن المهدي فيها: كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاً، وأفصحهم كلاماً، وأبلغهم في مخاطبة، وأثبتهم في محاوره، قلت يوماً لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها، وتقيدها وتخرجها، فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك، فقال لي وهو يضحك، ما أخيب ظنك! ليتها تسلم مني لأخذ كلامها ورسائلها، والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك وبعد فكان جميلاً أن نستوفي القول عن هذه الجارية ونبين ما لها على الأدب العربي من فضل وجميل، لولا أن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك، ولعلنا نوفيها القول فيما نكتبه عن أدب النساء في كتاب خاص

محبوبة

وهي من نظائر فضل في نشأتها وتربيتها واهدائها إلى المتوكل، فبالبصرة نشأت وفيها تخرجت، وكانت أجمل من فضل وجهاً وأعلى نفساً وأشبه بها في رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة ارتجالها وإن وقعت دون غايتها في ذلك كله

ومن حديثها أن قبيصة حظية المتوكل كتبت على خدها بالغالية « جعفر » وهو اسم المتوكل فأعجبه ذلك منها ، وطلب الى علي بن الجهم أن يقول في ذلك شعراً ، وكانت محبوبة حاضرة . فلم تدع لابن الجهم وقتاً يفكر فيه واندفعت من فورها تقول
 وكاتبه بالمسك في الخلد جعفرا بنفسى مَحَط المسك من حيث أثرا
 لئن كتبت في الخلد سطرأ بكفها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
 فيامن لملوك لملك يمينه مطيع له فيما أسر وأظهرا
 ويامن هواها في السرية جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وكان في المجلس علي بن يحيى المنجم أحد شعراء المتوكل وندمائه ، فبقى الشاعران واجمين لا ينطقان بحرف ، وأرسل إلى عريب فلحننت الشعر وغنى به المغنيات ومن حديث علي بن الجهم قال :

كنت يوماً عند المتوكل وهو يشرب ، ونحن بين يديه ، فدفعت الى محبوبة تفاحة مغلفة ، فقبلتها وانصرفت من حضرته الى الموضع الذي كانت تجلس فيه اذا شرب ، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة فدفعتها الى المتوكل ، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً ، ثم رمى بها الينا فقرأناها ، وإذا فيها

يا طيب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدي
 أبكى اليها وأشتكى دنقى وما ألقى من شدة الكمد
 لو أن تفاحة بكت لبكت من رحمتى هذه التى يدي
 ان كنت لا ترحمين ما لقيت نفسى من الجهد فارحمى جسدى

وكان المتوكل لا يكاد يفارق محبوبة وقتاً من الزمان ، حتى إنه وهو في مجلس خلافته كان يجلسها خلف ستر ثم يثنى وراء الستر فيكلمها ، ثم غاضبها يوماً فحجره ومنع جواريه أن يكلمنها وانقطعت عنه وانقطع عنها . ثم أخبرته وصيفة بأنها في

حجرتها تغنى ، فذهب حتى انتهى الى حجرتها واستمع إليها فاذا هي تغنى بقولها :

أدور فى القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمنى

حتى كأنى ركبت معصية ليست لها فدية تخلصنى

فهل لنا شافع الى ملك قد زارنى فى الكرى فصاخنى

حتى اذا ما الصباح عاد لنا عاد الى هجره فصالحنى

فطرب المتوكل طرباً شديداً وأعاد لها سابق عهده وقديم وده

ولما قتل المتوكل تفرق جواريه فكان مصير محبوبة الى « وصيف » أحد

المالِك الذين جلبهم المعتصم ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم فى هذه الدولة ملك

وسلطان ، وكان مصيرها اليه فى كثير من جوارى المتوكل ، فلما انتهين اليه جلس

للشراب وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاعة وقد تصنعن وتطيبين

الا محبوبة فانها جاءت مرهء متسلبة^(١) حزناً على المتوكل . فعنى الجوارى جميعاً

وشربن وطرب وصيف وشرب ، ثم قال لها يا محبوبة غنى ! فأخذت العود وغنت

وهى تبكى وتقول

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرأ

ملكاً قد رأته عىنى قتيلاً معفراً

كل من كان ذا هياً م وحزن فقد برا

غير محبوبة التى لو ترى الموت يشتري

لا شترته بملكها كل هذا لتقبرا

أن موت الكئيب أصلح من أن يعمرأ

فاشد ذلك على وصيف وهم بقتلها ، وكان بئعاً حاضراً — وهو خدينه وقسيمه

فى التغلب على الملك والعبث بالخلافة — فاستوهبها منه . فوهبها له ، فأعتقها وأطلقها

(١) المرهء التى تترك عنها بغير كل والمتسلبة اللابسة بس الحداد

فخرجت من سرّ مَنْ رأى إلى بغداد واحتجرت نفسها عن لقاء الناس حتى ماتت

*
* *

وبعد، فالى هذا الحد من الشواعر والمغنيات يقف القلم، وما نحاول أن نستوعب الموضوع أو نحيط به لأنه أوسع من أن يحاط به، وإذا استصفينا من ذلك شيئاً فحسبنا أن تقول ان أولئك الجوارى أتين في الشعر والغناء بيدع جديد؛ فالارقة النادرة، والخلفة الساحرة، والأنوثة الظاهرة، وكل ما من شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخف ألبابهم. — كل ذلك كان أوضح ما عرف به جوارى هذا العصر، وإذا علمت أن للمغنية من وسائل توطين النفوس وترويض الأرواح والاحتكام بالخواطر والمشاعر، والامعان في الأعماق والسرائر ما لا يتاح للرجل شيء منه سهل عليك أن تعرف قدر ما وصل النساء بهذا الفن من بعد الغاية وغلو المكان، وإذا قيل ان هناك أئمة الغناء من الرجال أمثال ابراهيم الموصلي وولده اسحاق و ابراهيم بن المهدي وأشباهم قلنا إن هؤلاء لم يكن يصطفيهم إلا الآحاد الممدودون من خلفاء الدولة وصدورها، فكان غناؤهم خيراً من الأخبار. أما أولئك النساء فقد كن في منال العيون والأسماع فغلب ذكرهن عن الألسنة وشاع حكمهن على النفوس، وفوق ذلك كن من الحسن والاحسان في ملك وسلطان، حتى قال فيلسوف العرب وامام مفكره أبو نصر الفارابي « إن هذا الفن لا يسمع من بين حية وشارب » ولقد صور الشاعر البحتري هذا الأسلوب الذي امتاز به المغنيات بقوله

وأشارت على الغناء بألحا ظ مراض من التصابي صحاح
فطربنا لهن قبل المثاني وسكرنا منهن قبل الراح

غلبة الجوارى على قلوب العرب

أما بعد فذلك الذى أسلفناه من فنون الجمال والتجمل عند الجوارى لم يكن كل ما ملكن من مواهب ، وما سلكن من مذاهب ، وما ارتدين من حسن واحسان ، وما ابتدعن من فن واقتنان ، وليس فى الكتاب مستفاض لأصفهن لك طاهيات طعام ، أو ساقيات شراب ، أو سامرات ليل ، أو ناسقات بيت ؛ على أنهن فى جملة ذلك كن صورة الحياة الناعمة ، والحضارة الباسمة ، والعيش الرغيد ، فأنت اذا تناولتها من أشتات نواحيها لا تجد إلا بهجة باهرة ، وفتنة ساحرة ، وكان أول آثار ذلك غلبتهن على قلوب الرجال ، واستحواذهن على عقولهم ، حتى لقد هتكوا فيهن ستر كل حشمة وخلعوا عذار كل وقار

وكانت بيوت الخلفاء مُسْتَنَ القُدوة ومسار الأمثال فى كل ذلك ، وأول من بذل من نفسه ، ورأيه ، وذخره ، وجلال منصبه لهؤلاء الجوارى الخليفة الثالث محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وما كذلك كان السفاح والمنصور من قبله أما السفاح فكان عصره عصر عزم ومضاء وهدم وبناء ، فلم يكن له متسع للهو ولا سبيل الى النساء

وأما المنصور فقد ملك عليه بناء الملك وتوطين دعائمه وتوفير المال لتشيد سبيل خواطره ومشاعره . وكان بخيلاً غيوراً مسوقاً الى الجد من الأمر مخوفاً مهيباً . وربما مال قليلاً الى التبسط للسمع فلم يكن يظهر لنديم ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء ، وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً وبين الستارة والندماء مثلها ، فاذا غناه المغنى فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة فيقول قل له أحسنت بارك الله فيك ، وربما أراد أن يصفق فيقوم عن مجلسه

ويدخل بعض حجر نساته فيكون ذلك هناك . وكان لا يثيب أحداً من ندمائه
وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في الديوان ، ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف الى مملكة
أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض

ولما خلف من بعدهما المهدي أراد أول أمره أن يحتجب عن الناس متشبهاً
بالمصور فلم يطق البقاء على ذلك إلا قرابة سنة ، ثم انكشف للندماء ، فأشار عليه
عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه أن يحتجب عنهم ، فقال اليك عنى يا جاهل !
انما اللذة في مشاهدة السرور ، وفي الدنو من سرى ، فأما من وراء وراء فما خيرها
ولذتها ؟ ولو لم يكن في الظهور بين الندماء والاخوان إلا أنى أعطيهم من
السرور بمشاهدتي مثل الذى يعطونى من فوائدهم لجعلت لهم في ذلك حظاً موفراً .
ومن ثم بدأ المهدي يتبدل

وقد غلب عليه شغفه بالجواري ، فكان لا يطيق الصبر عن محادثتهن ومجالستهن
وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه ، فكان اذا غضب عليه
تقرب اليه بذكر الجوارى وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنه

وما ظنك بخليفة ينهتك في جاريته حتى يقول فيها

أرى ماء وبى ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود
أما كيفيك أنك تملكيني وأن الناس كلهم عبيدى
وأنت لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الهوى أحسنت زيدى

ذلك قول المهدي في « حسنة » جاريته

وفي سبيل المهدي تداعى بنوه وحفدته . فهذا الهادي تملك زمام قلبه جاريته
غادر حتى لا يطيق فيها لوماً ولا يحد عنها مصرفاً

وهذا الرشيد ، ذلك الجبار الذى يرسل الكلمة فلا يبالى أى دم سفكت ولا أى

دار قوشت ، إنه لا يبالي كذلك أن يرسل الشعر الباكي المستكين في جواريه !
واليك فاسمع قوله في ثلاث منهم

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

وهؤلاء الثلاث هن اللاتي صرح بأسمائهن في قوله

إن سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

وخنث هذه إحدى الجوارى المغنيات المتبذلات وتعرف بذات الخال ، ولها
حديث عجب ، فقد تعشقا وشبب بها ثلاثة شعراء ؛ هم ابراهيم بن المهدي ،
وابراهيم الموصلي ، والعباس بن الأحنف ، وذاعت أشعارهم فيها في نواحي بغداد ،
وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد ، وتغنى بها الموصلي بين يدي الرشيد ،
ورغم كل ذلك لم يخرج الرشيد أن يشبب بها وينهتك فيها !! وَرَسَمَ الأَمِينُ
أَثْرَآيِهِ ، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضرب الهوى . وأكثر ما قيل عن خلاعته ومجاتته
مما موهه مؤرخو القرس ، على أنه كان أوهب الجميع في جد وهزل . ففي ليلة وهب
اسحاق الموصلي أربعين ألف دينار ، وفي أخرى وهب عمه ابراهيم مائتي ألف ،
ولا تنس أنه اشترى بذلاً المغنية بعشرين ألف ألف درهم

وأما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد
إليه ولا نظن أحداً لحقه فيه ، فقد حدث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين
وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزّرات قد تزّين بالديباج . وعلقن في أعناقهن
صلبان الذهب ، وفي أيديهن الخوص والزيتون

فهل رأيـت كهـذا ؟ خـليفة رسـول الله ، تُشـد بين يـديه الزنـانير وتـعلق الصـلبان ويُرْفـع الخـوص والريـحان ! ذلـك ما تـحدثنـا به الأـخبار عـن الخـليفة المـأمون

وهـل كان يـخطر بـنفسـك أن يـستحل خـليفة المسـلمين دم مسـلم من أكـبر رجـال دولـته لأنـه طـلب جـاريـته ، ثم عـلم أنـها أصـبحت حـاملاً مـنـه ، فلم يـكن لـه سـبيل اليـها أـما الرـجل فعـلى بن هـشام ، وأـما الجـارية فـتيم الهاشـمية ، وأـما الخـليفة فالمـأمون . ومـتيم تـلك جـارية تنـقل بـها الرق من رـجل إلى رـجل ، واجـتمع اليـها النـاس تغـنيهم وتطـربهم فهل تـعلم مـآل أـمرها بـعد أن قُـتل سـيدها في سـبيلها ؟ لـقد اتـخذها الخـليفة المـعتصم ابن الرـشيد لـا جـارية ولا مـغنية ، بل زـوجة ذات اكـليل وتـاج

وحـديث القـوم كلـه عـلى هـذا النـسق ، كلـما جـاء خـليفة أـحدث في تـبذلـه حـدثاً واستـجد جـديداً . وكان من أعـجب حـديثهم أن المـسترشد خـص ولـده الرـاشد بـعدة جـوار لـيلاعـبـنه وهـو صـبي مـراهق ، فـحملت مـنـه احـداهن وهـو دـون البـلوغ ، هـكذا يـقول ابن الأـثير

نفوذ الجـواري

وكان من أثـر تـلك الغـلبة عـلى القـلوب أن غـلبن كـذلك عـلى سـياسة المـلك وتـدبير الرـعية فهـذه الحـيزران جـارية المـهـدى وأـم ولـديه مـوسى وهـرون قـد بـلغت من سـعة الجـاه ونفاذ الكـلمة ما لم يـبلغه وزير أو أـمير . وكان بابها مـحط الـولة والقـواد ، ومـهبط ذوى الحـاجات والآمال ، حتـى فـشت فيـها القـالة وسـاء عـنها الحـديث . كـذلك كان أـمرها في عـهد مـولاها وزوجها المـهـدى

ولما صارت الخـلافة إلى الهـادى درجت عـلى سـيرتها في عـهد أيـه . وكان الهـادى فـتى أـلمى القـلب ، عـزيز الجـانب ، غـيوراً عـلى الحـرم . فلما رآى الوـفود تنـثال عـلى أـمه

أرسل إليها « ألا تخرج من خفر الكفاية إلى بذادة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك » فلم يثنها ذلك القول الحكيم عما ألفتته ، حتى إذا مضى عليها أربعة أشهر جاءت مرة تكلمه في أمر لم يجد إلى اجابتها إليه سبيلاً ، فقالت لا بد من اجابتي ! قال لا أفعل ، قالت فإنني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها له ، قالت إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال إذا لا أبالي ، وحمي وغضب ، فقامت مغضبة ، فقال مكانك تستوعى كلامي ! « والله — وإلا فأنا كفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم — لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدعى ، لأضربن عنقه ، ولأقبض ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك ! ما فتحت بابك لى أولدنى » فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة ثم جمع الهادى قواده ورجال دولته . فقال لهم : أيما خير ، أنا أو انتم ؟ قالوا بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيما خير أئى أو امهاتكم ؟ قالوا بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بأمه فيقولوا فعلت ام فلان ، وصنعت ام فلان ، وقالت ام فلان ؟ قالوا ما احد منا يحب ذلك ، قال فما بال الرجال يأتون أئى فيتحدثون بحديثها ؟ ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فشق ذلك عليها وحلفت الا تكلمه ولكن هل كفاها منه ذلك الهجر ، وهل تُروى المغاضبة غليل المرأة التى ترضعها أفلاويق الملك ، وتسكرها بكأسه ، وتشعرها بعزته ، ثم تعود فتكف يدها وتكم فاهها وتلزمها خدرها ؟

لم يكفها منه ذلك المهجر ولا ما فوق المهجر من شقاق ومكابرة ونزاع ومعاندة بل أمعنت في الانتقام الى آخر ما تصل اليه النفوس الممعة في الشر العارية من الفضيلة، فقد حرصت الأم جوارى ولدها الشاب ققتلته بـغَط وجهه والجلوس عليه حتى مات أفرايت كيف تشتري الجارية عزة الملك وزهرة الحياة بدم العزيز النجيب من بينها

أما الرشيد فقد قضى عليه ان يمكّن في ملكه لامرأتين : الخيزران أمه، وزيدة امرأته، أما الخيزران فلأنها خلعت عليه رداء الملك مخضباً بدم أخيه، وأما زيدة فلأن ذات الخال واشباهها عبث بقلبه، وغلبته على عقله، فأراد أن يشغلها عنه وهل ترى أعجب من أن تغنيه ذات الخال ذات عشية فيُحكّمها في ملكه فتسأله أن يولى صاحبها حمويه الخادم ولاية الخراج والحرب بفارس سبع سنين، فيصدع الرشيد بالرأى، ثم يخشى أن يموت في خلال هذا الأمد فيكتب عهداً على من يليه من الخلفاء أن يضمن نفاذ العهد للخادم الأمير! ذلك مارواه صاحب الأغاني عن الرشيد ومضت أجيال كان فيها للجوارى عز وشان، وملك وسلطان، وكانت من أشدهن استمكناً في الملك ومضاء في الرأى أم المقتدر، وهى جارية تركية، فقد كان لها سطوة قاهرة على رجال الدولة، وكانت تتصرف بالأحكام دون ولدها، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها

وقد عَرَضَ الجاحظ لذوات الجاه والنفوذ من الجوارى فقال :

ثم لم يزل للملوك والأشراف اماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن للناس : مثل خالصة جارية الخيزران، وعتبة جارية ريطة ابنة أبي العباس، وسُكْر وتركية جارتى أم جعفر (زيدة) ودُقاق جارية العباسية، وظلوم وقسطنطينية جارتى أم حبيب، وامرأة هرون بن معبوبة، وحمدونه أمة نصر بن السندی بن شاهك

ثم كنّ يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به ، فما أنكر ذلك منكر
ولا عابه عائب

الجواري عيون الخلفاء

وهناك ناحية من نواحي العمل انبثث فيها واستشفقن أسرار الملك من خلالها
وذلك باتخاذهن عيوناً على الوزراء والقواد ووجوه رجال الدولة ، فكان الخليفة يهب
الرجل جارية من جواريه فترصد منه كل اشارة وتتسمع منه أو من جلسائه كل
كلمة فاذا أصبح الصباح كان ذلك كله عند الخليفة . ومن أنباء ذلك ما حدث الطبري
عن يعقوب بن داود وزير المهدي قال : بعث الى المهدي يوماً فدخلت عليه فاذا
هو في مجلس مفروش بفرش مؤرد متناه في السرو على بستان فيه شجر ورءوس
الشجر على صحن المجلس ، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار ، من الخوخ
والتفاح ، فكل ذلك مؤرد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه ، فما رأيت شيئاً أحسن
منه ، واذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشطّ قواماً ولا أحسن اعتدلاً ،
عليها نحو ما في المجلس من الثياب ، فما رأيت أحسن من جملة ذلك ، فقال لي
يا يعقوب ! كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قلت على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به
وهناؤه اياه ، قال هو لك ، احمله بما فيه وهذه الجارية ليطم سرورك به ، قال فدعوت له
بما يحب ، ثم قال يا يعقوب ! ولي اليك حاجة ، قال فوثبت قائماً ثم قلت يا أمير المؤمنين
ما هذا الامن موجدة ، وأنا أستعيز بالله من سخط أمير المؤمنين ، قال لا ، ولكن
أحب أن تضمن لي هذه الحاجة وأن تقضيها لي ، فقلت لأمر المؤمنين وعلى السمع
والطاعة ، قال والله ! قلت والله ثلاثاً ، قال وحياة رأسي ، قلت وحياة رأسك ، قال
فضع يدك عليه واحلف به ، فوضعت يدي عليه وحلفت به لأعملن بما قال ، ولأقضين
حاجته ، قال فلما استوثق مني في نفسه ، قال هذا فلان بن فلان من ولد علي

ابن أبي طالب أحب أن تكفيني مؤونته وتريحني منه وتعجل ذلك ، قلت أفعل ، قال
نخذه إليك ، فحولته الى وحولت الجارية وجميع ما كان في البيت من فرش وغير ذلك
وأمر لي معه بمائة ألف درهم ، قال فحملت ذلك جملة ومضيت به ، فليشدة سروري
بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر وبعثت الى العلوي فأدخلته على نفسي
وسأله عن حاله فأخبرني بها وتجملى فيها واذا هو ألب الناس وأحسنهم إبانة ، وقال
لي في بعض ما يقوله ، ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة
بنت محمد ؟ قال قلت لا والله ، فهل فيك خير ؟ قال ان فعلت خيراً شكرت لك ، عندي
دعاء واستغفار ، فقلت له أى الطرق أحب إليك ؟ قال طريق كذا وكذا ، قلت فمن
هناك من تأنس به وتثق بموضعه ؟ قال فلان وفلان ، قلت فابعت اليهما وخذ هذا المال
وامض اليهما مصاحباً في ستر الله ، وموعداً وموعدهما للخروج من دارى الى
موضع كذا وكذا (الذى اتفقوا عليه) في وقت كذا وكذا من الليلة ، واذا الجارية
قد حفظت على قولى ، فبعثت به مع خادم لها الى المهدي ، قال : وبعث المهدي من
وقته ذلك فشحن تلك الطريق والمواضع التي وصفها العلوي برجاله ، فلم
يلبث أن جاءوا بالعلوي نفسه وصاحبه والمال على السجية التي حكها الجارية ، قال
وأصبحت من غد ذلك اليوم فاذا رسول المهدي يستحضرني ؛ وكنت خالي الذرع
غير ملقي الى أمر العلوي الا حين أدخل على المهدي وأجده على كرسى يده مخصرة
فقال يا يعقوب ! ما حال الرجل ؟ قلت يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه ، قال مات ؟
قلت نعم ! قال والله ! قلت والله ! قال قم فضع يدك على رأسي ، قال فوضعت يدي على
رأسه وحلفت له به ، فقال يا غلام ! اخرج الينا ما في هذا البيت . قال ففتح باباً عن
العلوي وصاحبه والمال بعينه ، قال فبقيت متحيراً وسقط في يدي وامتنع على الكلام
فما أدري ما أقول ، قال فقال المهدي لقد حل لي دمك لو آثرت اراقته ، ولكن احبسوه

في المطبق فما زال به حتى انقضى عهد المهدي والهادي واخرجه الرشيد في عهده
ومن احسنوا بث الجواري للرقابة المأمون، وكان عنده اسرار رجال دولته جميعاً
ولما ذاع رايه في خلق القرآن وخاصمه عليه قوم من سراة اهل الرأي والعلم وثبتوا
على خصومته رغم ما اجابهم منه من شدة وعنت اذاع في الناس اسرار كل منهم
وخفي عيوبه ومكنون دخاله ! وما عرف ذلك كله الا من هذا الطريق

والعجب ان هذا الأسلوب من الرقابة قد ذاع بين الناس حتى ارصد بعضهم
الجواري على بعض ، ويعجبني من رقيق الشعر قول الناشء في جارية رقية
فديتك لو انهم أنصفوا لقد منعوا العين عن ناظريك
ألم يقرأوا ويحهم ما يرو ن من وحى طرفك في مقتلتيك
وقد بعثوك رقيباً لنا فن ذا يكون رقيباً عليك

أمومة الجواري

وكان آخر حلقة من حلقات امتزاج الفرس بالعرب واندماج العرب في الفرس
ما ناله الجواري الفارسيات من امومة الأسر العربية ، وقليل من رجال الحواضر
العربية من لم ينزع بدمه الى أم أجنبية ، ولكي نسوق لك المثل الواضح على ما تقول
نذكر أن خلفاء الدولة العباسية الستة والثلاثين كانوا — إلا ثلاثة منهم — من ولد
الجواري، واذا نال الجواري شرف ولادة الخلفاء فلم يكن عزيزاً عليهن أن يلد من سواهم
وهذا هو البيت العلوي الذي ينزع بنسبه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر منه وهم الذين أولاهم الشيعة الإمامية جانب الطاعة ،
ورفعوهم إلى مواطن التقديس ، وهذا آخرهم محمد المهدي الذي يدينون بأنه لا يزال
حياً حتى يأذن الله له فيخرج إلى الناس ويملاً طباق الأرض نوراً وإيماناً وعدلاً

واحساناً، أولئك جميعاً لا نجد منهم في العهد العباسي إلا من كانت أمه جارية
وبعد فذلك كان شأن الجوارى في العراق وتلك غايتهم التي انتهين إليها من
الاختكام بقلب الرجل العربي، والتفرد بالمكان المحبوب في المجتمع العربي، والتمكن
من قياد الأسرة العربية، والوصول بالأمة الفارسية إلى القضاء على العصبية العربية
والآن ننتقل الى حديث الجوارى في الأندلس ومدى أثرهن في حياتها وقوة
تأثيرهن في نسوتها

الجوارى في الأندلس

أقام الأمويون ملكهم بالأندلس كما أقامه أسلافهم بالشرق على دعائم العصبية
العربية والبداءة العربية، لأن هذه السياسة وسليتهم في تمكين الملك ومعاناة الفتوح،
فعبروا دهرًا من الزمن لا يتخذون الجوارى إلا للمهنة والاستيلاد، فأما الخطوة
والمكانة فللعقائل من بنات العرب

كذلك لبثوا قرنًا ونصف قرن أخذوا فيها حمية الفتنة وسكنوا مضطرب الملك
ثم بدأوا يأخذون لأنفسهم نصيبًا من الراحة ويتتغون لها طريقًا الى السرور
فأصغوا الى المشرق ونظروا الى بغداد واستقدموا بعض جوارىها المغنيات

قر

ومن أول هؤلاء قر البغدادية، وهي قينة مغنية من أبرع قيان بغداد وأصنعهن
في الغناء وأعرفهن بفنون الكلام، سمع بها ابراهيم بن حجاج صاحب أشبيلية في
أخريات القرن الثالث فوجه إلى بغداد بأموال عظيمة اشترى بها حتى إذا قدمت
الأندلس ازدري بها نساء العرب لأنهن لم يألفن جارية ذات مكانة، وأخذن يتهاמשن
إذا مرت ويتغامزن اذا غنت، فقالت هي في ذلك :

قالوا أتت قر في زى أطمار من بعد ما هتكت قلباً بأشفار
تمشى على وجل تغدو على سبل تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هي من أحرار موضعها ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم لله من أمة تُررى بأحرار
مالا بن آدم نخر غير همته بعد الديانة والإخلاص للبارى
دعنى من الجهل لا أرضى بصاحبه لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنة إلا لجاهلة رضيت من حكم رب الناس بالنار

وقر هذه هي التي اعتمدت بناء الأدب النسائي بالأندلس ، وهو الذي سنصفه
لك فيما ير بك ، ومما يمثل لك أسلوب هذا الأدب أبدع تمثيل قولها تتشوق الى
بغداد وتتغنى بحاسنها وحسانها

آها علي بغدادها وعراقها وطلبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن في الدهر تشرق من سنا اشراقها

الناصر وجواريه

ولما ولي أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بلغ الجواري في عهده
مبلغهن في بغداد

وكان عبد الرحمن حين وثب الى الملك في مشرق العمر ونضرة الشباب ، وكان
فتى لا تساميه الرجال مضاء في العزم ولا سناء في الرأى ولا نفاذاً في التدبير ، وكانت
أقاليم البلاد وأطراف الملك خاضعة للمغلبين الذين استأثروا كل منهم بما يملك من

دون الملك الأموى، فأراد عبد الرحمن ألا يبقى فى الأندلس من ينازعه الملك ويحاذيه السلطان، فما زال ينتزع المتغلبين واحداً بعد واحد حتى دانت البلاد له وألقت أزمتهإليه، ثم اندفع بجيوشه الى بلاد الفرنجة وما وراءها فدوخ ملكها وأفزع ملوكها وأذل رجالها وسبى نساءها حتى تحامته القياصرة وتقادته الجابرة، وأنشأ الجميع يهدونه أنفس ما عندهم من جوهر ومال حتى اعتلى ذروة المجد واقعد ظهور الآمال

ومنذ ذلك العهد أخذ سيل الجوارى يتدفق على الأندلس وأخذن يسقين العرب من بنى أمية بالكأس التى شرب بها بنو العباس، بل كان أصحابنا فى الأندلس أسرع نشوة وأشد اندفاعاً من أشباههم فى العراق كدأب المقلدين من الناس أجمعين . هذا هو الناصر ومكانه من سناء رأى ومضاء العزيمة ما علمت، تغلبه جاريته الزهراء على نفسه ورأيه وحمته فيوجهها جميعاً الى تذليل المستحيل لهذه الجارية، وان من تذليل المستحيل قيامه بابتناء مدينة الزهراء

الزهراء

واذا ذكرت الزهراء فاذكر ما يقول فيها صاحب نفح الطيب : « أنه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبن مثله فى الإسلام البتة، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد أو رسول وافد أو تاجر جاهد — وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله »

والحق أن القوة التى دفعت الناصر الى بناء الزهراء لم تكن مما يدفع الناس الى بناء قصورهم وعمائرهم ولا هى من جنون العظمة الذى دفع ملوك مصر الأقدمين

الى بناء أهرامهم ومعابدهم ، فان لهذا النوع من الجنون حداً يقف دونه أو ينتهى اليه ، ولكنها قوة ساحرة ييثرها النساء فى قلوب الرجال فينخلعون عن أموالهم وأرواحهم فى سبيلها .

أرصد الناصر على بناء الزهراء ما ورثه من مال وما جلبه من مغنم ، وان تشأ فقد أرصد عليه ذخراً أم وأعلاق ملوك ، واستقدم له المهندسين من بغداد ورومة والقسطنطينية ، واجتلب له الرخام الأخضر والوردى والمجزع من افريقية وتونس وقرطاجنة وريه ورومه ، وأعطى على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية فكان ما جلب له ست عشرة وثلثمائة واربعة آلاف سارية

وأقام الناصر على بناء الزهراء عشرين عاماً كانت تستنفد فيها كل يوم ستة آلاف صخرة غير ما كان يستنفده تمهيد طرقها وتعميد مناهجها فذلك ليس فى هذا الحساب . وكان يقوم على البناء عشرة آلاف رجل يعملون دائبين كلما غاب منهم فوج أعقبه آخر .

أما وصف المدينة فما يعجز عقل الإنسان عن تصويره وتصوره ، وهو كما يقول ضيا باشا صاحب تاريخ الأندلس « كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر التى لم يخطر مثل خيالها فى ذهن بناء منذ برأ الله هذا الكون ولا تمثل رسم كرسما فى عقل مهندس منذ وجدت العقول »

فأنت اذا شارفت المدينة وجدت سوراً يقوم عليه ثلثمائة برج حربى كأبراج القلاع وينتظم على محيطه ثلاثة عشر وخمسمائة وألف باب كلها من الحديد الملبس بالنحاس أو الآبنوس المطعم بالفضة والذهب ! فاذا نفذت الى المدينة من أحد أبوابها وجدت حديقة لا يحدها البصر ، تشقها طرق منسقة وبرك وغدران تلتقى جميعاً على البحيرة العظمى التى جلب اليها أكثر ما عرف من صنوف السمك ، وكان هذا

السّمك من الكثرة بحيث يستنفد اثني عشر ألف خبزة وستة أفقزة من اللحم كل يوم . وعلى البركة تقوم تماثيل من الذهب المحلى بالجواهر على هيئة الأسد أو الطير فوق الفصون وكلها تتصل بأنابيب من الفضة تمدّها الماء من متاع جبل قرطبة، فاذا انتهى إلى أجوافها سمعت له زئيراً أو صفيراً ثم تلقيه من أفواهها في البحيرة . وإلى جانب من البركة حديقة للوحش ، وأخرى للطير تظللها الشبّاك

أما القصور فكانت فوق منال العقول ، ومنها قصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام المتماوج الشفاف ، وكانت قراميد بهو الخلافة من الذهب والفضة وفي سقفه علقت اليتيمة ، وهى الدرة التى أهداها إلى الناصر إيون ملك القسطنطينية وكانت تتألق فى سماء الغرفة كما يتألق النجم فى حاشية الظلام

وكان فى كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، وقامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافى . وفى وسط هذا المجلس حوض عظيم مملوء بالزئبق وكانت الشمس تشرف على الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس فيتوهج من ذلك نور يأخذ سناه بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفرع أحداً من أهل المجلس أو ما إلى رجل من مواله فيحرك ذلك الزئبق فتومض فى المجلس بروق تغشى الأبصار وتخيل للرّائين أن القصر طار بهم فيفرع الرجل حتى يقع

ومن القصور القصر المؤنس ، وفيه بيت المنام ، وفى وسطه الحوض الأخضر المنقوش الذى جلب إليه من بيت المقدس ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة الإنسان ، وعلى جانبه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة ، والماء يتدفق من أفواهها جميعاً

وبين القصور مسجد الزهراء ، وهو على هذا النسق الفريد من الجلال والجمال

ومن العجيب أن الزهراء حين حلت به سألها الناصر كيف ترين هذا؟ فقالت حسن لولا أن هذا الأسود يضاجعني! وأشارت الى جبل قرطبة — فلم يكن غير قليل حتى كسى الجبل حلة مؤشّية منقطعة النظير من الزهر والريحان وشجر اللوز والصنوبر

ذلك هو القصر الذي استنفد جهد الناصر وهمته وماله عشرين عاماً، وما كان ذلك الجنون المبرح إلا لأن جاريته ثم زوجته الزهراء طلبت اليه بناء فشرع به للناس شريعة الفناء في جواربهم، ولمعري لئن رفع الناصر بنيان الدولة العظيمة وأعلى كلمتها ووجد فرقها لقد احتفر لها القبر العميق بما مكن لهؤلاء في الملك — ملك القلوب والأجساد

صبح

وهذا ابنه الحكم قد غلبت على قلبه وعرشه جاريته صبح البشكنسية فتبادر العظماء وذوو الحاجات الى غشيان دارها وابتغاء الوسيلة عندها والزلفى اليها، وبهذه الوسيلة انتقل المنصور بن أبي عامر من مقام الكتابة للناس على مدرجة الطريق الى مقام الوزارة بل الى مقام الملك لأنه تمكن بها من تقليم أطفار ولدها هشام بن الحكم، وما زال ينتزع منه مظاهر الخلافة يوماً بعد يوم حتى حجبه عن الناس ومنع اسمه ان يذكر على أعواد المنابر أو يكتب في صدور الرسائل وفي طرر الدراهم، ثم استكتبه كتاباً جعل فيه ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر دون الفطارف من قریش وسلائل الملوك من بني أمية، فثار الأمويون لذلك ثورة دمروا فيها الزهراء واتبهوا كنوزها ونفائسها فأصبحت فردوس الدنيا أطلالاً بالية ورسوماً عافية كل ذلك لأن الرجل توسل بدهائه وكياسته وجزيل هداياه وجميل أطافه الى قلب الجارية المملّكة فما زال يصعد بها درجة بعد درجة حتى اعتلى هامة الملك

وكان كلما أراد الوثوب الى أمانيه سرها بأمنية من أمانيتها حتى لقد بنى لها مرة بيتاً
من الفضه لم ير الراؤون مثله

شعر الملوك في الجوارى

وجاء سليمان بن المستعين الخليفة الأموي فاتبع خلفاء بني العباس وأذاع شعره
تغزلاً وتبذلاً في جواريه، مما تغنى به المغنون في عواصم الأندلس

ومن قوله يمارض الرشيد في أبياته التي أولها — ملك الثلاث الأنسات عناني :

عجباً يهاب الليث حد سنائي	وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيبا	منها سوى الاعراض والهجران
وتملك قلبي ثلاث كالدمى	زهر الوجوه نواغم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر	من فوق أغصان على كئبان
هذي الهلال وتلك بنت المشتري	حسناً وهذي أخت غصن البان
حاكت فيهن السلو الى الصبي	فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وثنيني	في عز ملكي كالأسير العاني
لا تمذلوا ملكا تذلل للهوى	ذل الهوى ملك وعز ثان
ما ضر أنى عبدهن صباة	وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفا بهن فلست من مروان

ومن العجيب أنك لا ترى عشاق الجوارى مهما عز جانبهم وتسامت منازلهم
إلا أرقاء في ألفاظهم أذلاء في مشاعرهم وضعاء في ألفاظهم يتوسلون إلى جواريههم
بالذل ويقدمون اليهم أعناقهم للرق ولا ترى ذلك في شعر من أضناه حب الحرائر
من بنات العرب، بل أنه لا يتقدم اليهن إلا بغرّ مآثره وعُظم مفاخره

هذا المستظهر بن هشام وهو خليفة المستعين ونظيره في جلال لقبه وسناء حسبه
أحب أن يتزوج فتاة من قرابته فطلته أمها فقال فيها بعض ما استفاض من عاطفته
شعراً يفيض عزة وإباء ، وكان مما قال :

يكلفها الأهليون ردى جهالة	وهل حسن بالشمس أن تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت	جلالة قدرى أن أكون لها صهرا
وانى لأرجو أن أطوف بمفخر	بملكى لها وهى التى عظمت نفرا
وانى لطعان اذا الخيل أقبلت	جرائدها حتى ترى جونها شقرا
وانى لأولى الناس من قومها بها	وأنبهم ذكراً وأرفهم قدرا
جمال وآداب وخلق موطأ	ولفظ اذا ما شئت اسمعتك السحرا

المعتمد وجواريه

ولعل أنس مثل من أمثلة تبذل الملوك فى جواريهم وتهورهم فى مرضاتهم
واتدافعهم إلى أعماق الهاوية من جرائنهم المعتمد على الله محمد بن عباد صاحب
أشبيلية ووارث ملك بنى أمية ، فقد أنهب نفسه حظاياه فسيبى له واقتسمن قلبه
ومن حديثه أنه أرسلهن ذات عشية من قرطبة إلى أشبيلية فخرج معهن يشيعهن
فسايرهن من أول الليل إلى الصبح ، ثم عاد عنهن وهو من فراقه فى حيرة والتياغ ، ومما قاله
سايرتهم والليل اغفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثم مسلما وتسلمت منى يد الاصباح تلك الأنجما

وقال فى موقف الوداع

ولما وقفنا للوداع غدية	وقد خفقت فى ساحة النصر رايات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا	يجرى الدموع الحمر فيها جراحات

اعتماد

وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرميكية التي اشتراها من
رميك بن حجاج، واليها ألقى زمامه وفي سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق اسمه
فتسمى بالمعتمد، وتلك التي يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار

تزوجتها من بنات الهجان رميكية لا تساوى عقلا
فجأت بكل قصير الذراع لثيم التجارب عما وخالا

وكانت اعتماد لا تشعر بأن في الحياة أمنية عزيزة أو مطلباً بعيداً، فما زعت
نفسها الى شيء حتى وجدته بين يديها على أحسن صورته وأتم وجوهه، ولقد رأت
مرة فتيات اشبيلية يملأن الجرار من النهر وفي أقدامهن أثر الطين فأحبت أن تطأ
الطين كما يطأن وتحمل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب
وأوطأها المسك معجوناً بماء الورد والغالية. وشاءت المقادير أن ينهك هذا الترف
قوة الملك وأن يطمع فيه العدو المتغلب وأن يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أمير
الملثمين بالمغرب فيخوض البحر الى أشبيلية ويقصى العدو عن الملك ثم يقود الملك
المستهام أسيراً ويقود صاحبه ونساءه وبناته وجواريه سبايا الى اغمات من أعماق
بلاد المغرب، ولم تدرك الملك الملم رقة الدين ولا نبيل الخلق فالتقى أسيره المسكين
مكبلاً بالحديد في غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن في
الأسواق بما يفلزن من الصوف حفايات الاقدام باديات الأجسام معروقات العظام
وكذلك دخلن على أيههن في سجنه صبيحة عيد النحر ففرز فرزة كاد ينفطر لها قلبه
ثم أنشأ يقول :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يفلزن للناس ما يملكن قطعيرا

برزت نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطآن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدّاً إلا ويشكو الجذب ظاهره
وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً
فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فانما بات بالأحلام مغرورا

ومن قوله يخاطب قيده حين بلغ به العظم
قيدى أما تعلمتى مساما
أيتت أن تُشفق أو ترهما
أكلته لا تهشم الأعظما
أرحم طفيلًا طائشاً لبه
لم يحش أن يأتيك مسترحما
وأرحم أخيات له مثله
جرعن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما
يفتح الا لرضاع فما

الجوارى المدينات فى الاندلس

وتلك طائفة أخرى من الجوارى المجلوبات إلى الأندلس تصلها بغيرها صلة
الاسم وتبعدها عنهن فوارق المبدأ والغاية والأثر
ولقد عرفت المدينة منذ استوطنها اليمانون من الأوس والخزرج بالرقه والظرف
واتقان الغناء والعزف، ودرجت على ذلك فى الاسلام، ولم تحرف عن شهرتها فى
ذلك كله حتى فى عهد النبوة والخلافة

واتصل الأندلسيون بأهل المدينة فى مواسم الحج واستمعوا غناء جوارىهم،
فذهبن بهم كل مذهب من الطرب والاعجاب، وسارت الأنباء بذلك إلى الأمير

عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس، فاستقدم منهن جماعة عرفن بالأدب الفض والشعر الرائع والفناء البديع، وابنتى لهن دار المديت بقرطبة وأجرى عليهن المثوبة والألطف وأوسمن بالبر والأكرام، ومن هؤلاء فضل وعلم وقلم. وقد عرف هؤلاء جميعاً بشرف النفس ونبل الخلق وكمال الخلال. ولم يكن فيهن ما في بنات الروم والصقالبة والجلالقة من خلابة ودعابة فهن لا يصلحن لذلك وفيهن السوداء والحمشاء، والعجفاء، ولكنهن مع ذلك كن مشرقاً من مشارق الجمال الفني في تلك البلاد. ولقد يحمل بنا أن نسوق حديثاً طريفاً عن إحدى هؤلاء الوافدات وتسمى بالجارية العجفاء لتعلم إلى أى حد بلغ أولئك الجوارى في التأثير على نفوس أهل الأندلس :

قال الأرقمى : قال لى أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك — هل لك في أحسن الناس غناء ؟ فجننا إلى دار مسلم بن يحيى مولى ابن زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها ، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً ، وفي البيت نمرُتان قد ذهبت عنهما اللحمه وبقى السدى وقد حشيتا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ، ثم أُطِقتَ علينا عجفاء كلفاء عليها هرَوى^(١) أصفر غسيل ، وكأن وركيها في خيط من وسخهما ، فقلت لأبي السائب : بأبى أنت ما هذه ؟ فقال اسكت ! فتناوات عوداً فغنت :

ييد الذى شغف الفؤاد بكم	تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقنى أن قد كلفت بكم	ثم افعل ما شئت عن علم
قد كان صرم فى المات لنا	فعجلت قبل اليوم بالصرم

(١) الهروى نوع من خشن الثياب يجلب من هراء إحدى مدائن خراسان « افغانستان الآن »

قال فحسنت في عيني ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب وزحفت معه . ثم تغنت :

بَرِحَ الخفاء فأَيَّ ما بك تكتم ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من غير قلبه يا قلب إنك بالحسن للمغم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا تُلْقِ المراسي طائماً وتُحَيِّم
فتدوق لذة عيشنا ونعيمه ونكون اخواناً فإذا تنقم
فزحفت مع السائب حتى فارقتا الثمرتين ، وربت العجفاء في عيني كما يربو
السويق بماء مزنة . ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السَّما إذ حل كل الأجرة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً فاليوم أمسى فراقكم عَزِماً
فألقيت طيلسانى ، وأخذت شادكونة وصحت كما يصاح على اللويا بالمدينة ،
وقام أبو السائب فتناول رقعة في البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ،
وصاح صاحب البيت - وكان أخف - قوانينى قوانينى !! «قواريرى قواريرى»
وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره

ومن هذا ونحوه تعلم أن هؤلاء الجوارى لم يحتلبن لما اجتلب له غيره ، وقد
حرر هؤلاء وتزوجن وانبثثن في أسر الأندلس يُعلمن نسوتها الأدب ، ويروينهن
الشعر ويُلَقِّنهن الغناء في حشمة ووقار

وقد ظهر في هؤلاء الوافدين من تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه والحديث
كعبادة المدينة ، فقد روت عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة ، قدم بها
الأندلس محمد بن يزيد بن مسامة بن عبد الملك بن مروان ، وكان كثير الإعجاب
بعلمها وفهمها ، وتزوجها بشر بن حبيب الأندلسى فنها سائر ولده

وتعد وفادة هؤلاء الجوارى إلى الأندلس مطلع عهد جديد للأدب والشعر والغناء بالأندلس ، وذلك ما سنتناوله بالقول عند الكلام عن الأدب النسوى بالأندلس

بنو الأغلب

ذلك حديث أهل الأندلس ، وفي مساقم سار بنو الأغلب ملوك تونس ، وعندهم وعن ملوك العراق وردوا موارد اللهب وشربوا كثوس النعيم ، ومن بغداد وقرطبة استوردوا الجوارى الفارسيات والصقلييات ، ومن حديثهم أن المعتمد على الله العباسى ساوم فى جارية شغفته حباً ، وأبلغها جهد ما يطيق ، وهو يومئذ ولى عهد الخلافة العباسية — فأبى عليه صاحبها وأبلغها حداً ليس فى منال ولى العهد ، فلما أعجزه شراؤها ذهب بها صاحبها الى ابن الأغلب فباعها منه

ثم لما فتحت عليهم جزيرة صقلية ومالطة تدفق عليهم سيل الجوارى الروميات فحللن من منازلهم وقلوبهم محلاً لا يرام ، حتى انتهى الأمر إلى « زيادة الله » آخر عقدهم فقسم نفسه بين ممالكه وجواريه . وبلغ من إيثاره لأحد غلمانته أن ضرب النقود باسمه ، وترك له زمام الملك يلهو بتصريفه . ثم غضب عليه فأقصاه ، حتى جاءت جارية فشغفت فيه ، فأعاده إلى مكانه . . . !! وكان مُلكاً عزيزاً فذل ، وقوة هائلة فهانت . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

الفاطيون

وجاء الفاطميون فى أعقاب بنى الأغلب ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وما زال ظلمهم يمتد وملكتهم يتسع حتى وسع مصر ، وبلاد الشام ، والحجاز ، واليمن وواقعهم النعمة من كل مكان ، وأضاء لهم العز من كل أفق ، وجلبت إليهم الجوارى

من كل قطر . ولكنهم لم يجدن عندهم من الحُظوة والقوة ونفاذ الرأى وعلو الشأن ما وجدن في غير مصر من سائر البلدان ، لأنهم راموا الخلافة بوسيلة النبوة المقدسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنهم كانوا يُرَوِّجون لأنفسهم بالارجاف بيني العباس ، وإذاعة السوء عنهم ، وقولهم فيهم إنهم ملكوا الجوارى زمام أمورهم وقوام سياستهم . ولما علم المعز لدين الله — وهو لم يزل بعد أميراً على تونس — أن ابنة الأخشيد اشترت جارية حسناء من بنات بغداد لتستمع بها ، أرسل قائده جوهرًا لفتح مصر ، وقال الآن لا يصدنا عنها شيء ، فكان الأمر وفاق ما قال . وكان كل ذلك حائلاً دون بلوغ الجوارى مبلغ التغلب على قلوب خلفاء مصر والاحتكام بملكهم ، والعبث في جماعتهم . وما زلن كما هن أدوات مهنة ووسائل زينة حتى جاء عهد المستنصر — وكان قد أوتى الملك صبيًا لم يبلغ السابعة ، وأقام فيه ستين عاماً وسبعة أشهر . ولما تنصف ذلك الأمد الطويل أدركته ملالة فمال إلى اللهو ، واستراض للجوارى ، على أن القدر لم يدعه في لهوه طويلاً ، فأصابت مصر بمجاعة مهلكة ذهبت باليابس والأخضر . ولبثت تجتاح الحرث والنسل وتعصف بالحب والنوى سبع سنين ذأباً ، حتى أشفق الخليفة على حرمة وبناته أن يأكلهن الجوع فأرسلهن إلى بغداد ، وحتى لم يبق في دار الخلافة إلا جواد مهزول يركبة الخليفة ويسير من حوله حرسه وحاشيته مشاة يمد بهم سكر الجوع . وكان الملك من كل ذلك عظة بالغة ، فإنه ألق من بعدها عن اللهو وأتاب إلى الله . وجاء الملوك من بعده فلم يكن منهم إلى جوارهم نزوع شديد كالذى كان في قرطبة وبغداد



ذلك الذى بسطته لك شأن الجوارى في العالم العربى ، وقد ذكرته لك صافياً مستفيضاً لأنه أقوى المؤثرات في حياة المرأة العربية . وسنجلو من ذلك الحديث

وجه العظة ونستخلص مدى الأثر حين نعرض لتلك المرأة وما نالها في هذه الدول من خير أو شر . وننتقل بمعونة الله وتوفيقه إلى ذكر الديارات المنبثة في بلاد العرب وما أنشئت له من غاية ، وما كان لها من أثر

الديارات

كان الفرس فيما قصدوا إليه من نشر آدابهم وبث حضارتهم ينزعون إلى غاية واحدة هي إخماد المصبية العربية ليم لهم ما أرادوا من إعادة مجدهم الغابر وملكهم القديم ، وما عليهم من سبيل أن يرتدوا لبوس الدين طائعين أو خادعين

أما الروم والسريان ومن سواهما من نصارى المشرق والمغرب ، فقد كان همهم من العرب غير همّ الفرس منهم . وغاية هؤلاء أن ينقضوا دعامة الإسلام ليشقوا الصفوف للنصرانية في بلاد العرب ، فأخذوا يُقَلِّبون للإسلام وجوه الحيلة ، ويفوقون عليه سهام الغيلة ، ويحشدون عليه جيوش التدبير ، ولكنهم قوم أولو سياسة ودهاء فهم لا يخطبون في حفل ، ولا ينطقون في جمع ، ولا يعيشون كتاباً ، ولا ينمقون صحيفة ، ولا يباهون أحداً برأى ، ولا يشافهون أحداً بمكروه . بل أخذوا يمزجون العسل المصقّى في السم المذاب ، وأنشئوا ييثون الشكوك والشبهات في مزاج من المآرب والشهوات . وذلك ما أعدوه في دياراتهم التي ثروها في كل مكان من بلاد العرب

وكانت عناية القوم بتنظيم دياراتهم وتنسيقها واختيار مواطنها الصالحة لها مما يفوق كل عناية ، وأكثر ما تكون في أرباض المدن وبين أشات القرى وعلى طرق القوافل ، وفي منقطع الصحراء ، وفوق سفوح الجبال ، وفي كل مكان يكون انتياب الناس له وتواردهم عليه

وعلى الرغم من تكاثر الديارات وانشعاب مواطنها وترامى قواصياها وتباين بلادها كانت كلها على نسق واحد من الجمال النض الذى تنساق النفوس اليه ويخلو العيش فيه . فهناك فى نجوة من الأرض تجدد خيلة من الزهر قد عكفت عليها ظلة من الكرم وانبعثت من ورائها أصوات ندية يحملها إيقاع جاوز غاية الابداع ؛ منظر يستهوى السمع والبصر ويستخف الأجسام والأحلام ، حتى إذا دخلها الداخل - وهى لا تمتنع على قاصد - وجد النسيم بارداً خفاقاً والماء صافياً سلسالاً والحر صرفاً معتقة، ووجد فوق ذلك إن شاء طعاماً هائئاً ومناماً هادئاً، وليس ذلك بشيء فى جانب ما يسلب نهام من ولّه العشق وفتنة الجمال

ولشد ما غشيت تلك الديار بدوى الأخطار من خلفاء الدولة وامرائها وساستها ووزرائها وكتابها وشعرائها ، فكان لهم منها مأب طيب وجدوا فيه كل ما تشتهى النفس من مطاعم ومشارب وأغراض ومآرب ينبئك عنها ما سار من شعرهم فى وصف تلك الديارات وأفنانها وحسناتها وحسانها وما أصابهم تحت ظلالها من حب شرد أحلامهم وسهد أجفانهم وأحرق أكبادهم ، وبين هذه المنايا وتلك المنى أثيرت روح الشبهات على الاسلام وعصفت ريح الزندقة والاحاد . وليس من الحق أن نتهم العلم الذى نقله العرب عن أمم الحضارة باثارة الشكوك والريب فما عرف عن أئمة هذه العلوم إلا الدين الصريح والايمان الصحيح ، وإنما الملحدون جماعة من الشعراء والمتأدبين والمتبطلين وأشباه المتعلمين ممن ألفوا غشيان تلك الديارات وأقاموا فيها ما أقاموا ثم انثوا عنها بلا قلب ولا لب ولا دين ولا عقيدة . على أن الذى يعيننا الآن من هذه الديارات أن العرب أصيبوا فيها بنوع من الفتنة أشجى قلوبهم وأطال عناهم لأن هذا الجمال الذى رأوه لم يكن مما ابتذله عيونهم ومملكته أيانهم . وكثير من ذوى الرأى والعلم كان يذهب إلى تلك الديار فيقيم فيها ما شاء

أن يقيم فاذا انصرف عنها شغفه الحب وشغله النوح عن بيته وآله ، وما ظنك برجل من خاصة رجال الملك يسير في ركاب مولاه سميماً ونديماً حتى يبلغ ديراً فيقتل اليه ليلهو بالنظر اليه لحظة ثم يعود فما هو إلا أن قدموا له الشراب والطعام والكأس والنّدام حتى ينسى الملك فيشرب وينام ، وذلك ما يحدث به اسحاق بن ابراهيم الموصلي فيما رواه عنه صاحب الأغاني ، قال :

خرجنا مع الرشيد يريد الرّقة فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد في طلب الصيد ، ولاح لي دير فقصدته وقد تعبت فأشرفت على صاحبه فقال هل لك في النزول بنا اليوم ؟ فقلت إى والله وانى الى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لي الباب وجلس يحدثني — وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بني أمية — فجعل يحدثني عن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم وعرض على الطعام فأجبتّه ، فقدم إلى طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه ، وأتاني بشراب وريحان طرى فشربت منه ، ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم أر أحسن وجهاً منها ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء فقلت في ذلك

بدير القائم الأقصى غزال شادن أحوى

برى جبي له جسمى ولا يعلم ما ألقى

وأكتم حبه جهدى ولا والله ما يخفى

وركبت فلحقته بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب وطلبني فلم أوجد ، وأخبرت بذلك فغنيت في الأبيات ودخلت اليه ، فقال لي أين كنت ويحك ! فأخبرته بالخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب عليه حتى سكر وأخر الرحيل في غد ومضينا الى الدير ونزله فرأى الشيخ واستنطقه ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ودعا بالشراب وأمر الجارية التي كانت بالأمس تخدمني ان

تتولى خدمته وسقيته ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار وأمر باحتمال خراجة له سبع سنين فرحلتنا ، فلما صرنا بتل عزاز من دابق خرجت أنا وأصحاب لي تنزه في قرية من قراها فأقننا بها أياماً وطلبني الرشيد فلم يجدني ، فلما رجعت أتيت الفضل بن الربيع فقال لي أين كنت ؟ طلبك أمير المؤمنين فأخبرته بنزھتنا فغضب وخفت من الرشيد أكثر مما لقيت من الفضل فقلت

إن قلبي بالتل تل عزاز عند ظبي من الأطباء الجوازي
شادن يسكن الشآم وفيه مع ظرف العراق شكل الحجاز
يا لقوى لبنت قس أصابت منك صفوا الهوى وليست تجازي

وغنيت فيه ، ثم دخلت على الرشيد وهو مغضب فقال أين كنت ؟ طلبتك فلم أجدك ! فاعتذرت اليه وانشدته هذا الشعر وغنيته إياه فتبسم وقال عذروا أيك أي عذر ، وما زال يشرب عليه ويستعيدنيه ليلته جمعاء حتى انصرفنا مع طلوع الفجر ، فلما وصلت الى رحلى اذا برسول أمير المؤمنين قد أتانا يدعونا فوافيت فدخلت واذا ابن جامع يتمرغ على دكان في الدار وهو سكران يتمايل ، فقال لي يا ابن الموصلي أتدرى ما جاء بنا ؟ فقلت لا والله ما أدري ، فقال لكن والله أدري دراية صحيحة جاءت بنا نصرانيتك . . . عليك وعليها . . . وخرج الآذن فأذن لنا فدخلنا ، فلما رأيت الرشيد تبسمت فقال لي ما يضحكك فأخبرته بقول ابن جامع فقال ماصدق ما هو إلا أن فقدتكم فاشتقت الى ما كنا فيه ، فعودوا بنا فعدنا فيه حتى انقضى مجلسنا وانصرفنا . . .

ذلك مثل من حديث الديارات ، ومثله جم كثير ، وما نحاول أن نتهم تلك المعابد بأنها كانت من مبادل القوم ودور خلاعتهم ، ولا بأن رهبانها أباحوم ما أرادوا من لهو ومجانة ، ولكنهم وجدوا فيها فناً من الجمال لم يحوزه في بيوتهم ،

ولم تنبسط عليه أيديهم ، وأصاب ذلك منهم نفوساً مبيحة ، وسرائر نازعة ، فشغفوا به ، وشغلوا بالحديث عنه ، وغرهم من أمره ما وجدوا من تبسط الرهبان لهم بالسمر والمحادثة ، وبالمحاور والمجادلة ، وبالكرم والضيافة ، وبكل ما تسكن اليه النفس وتطيب به ، فاذا رأيت انخلاع القوم في الفتنة بهذه الديارات فانما هي فتنة الطمع فيما عز عليهم ، والتشبيب بما ندّ عن حياتهم ، والولوع بفنون الجمال المتناسقة هنالك من ظل وبستان ، وروح وزبحان ، ووجوه حسان ، وشراب روي ، ومسمع ندي ، وما الى ذلك من فتنة السمع والبصر والنفس والقلب

وجميل بنا أن نلم المامة بأشهر الديرة التي فتنت العرب وأثارت مشاعرهم وأرسلت أشعارهم ، ومن جملة ما يساق لك من الشعر تعلم كيف كان شغف القوم بتلك المواطن

من ديارات العراق

دير أحويشا

ومكانه بديار بكر ، وكان غاية في السعة والبهاء ، وحوله البساتين والكروم ، ويحمل خمره الى ما حوله من البلدان لجودته ، وإلى جانبه نهر يعرف بنهر الروم وفيه يقول محمد بن طناب الشاعر

خفاف في العدو وفي الروح	وفتيان كهّمك من أناس
وضوء الصبح مقصوص الجناح	نهضت بهم وستر الليل ملقى
غريب الحسن كالقمر الليّاح	نؤم بدير أحويشا غزلاً
فوافينا الصّباح مع الصباح	وكابدنا السرى شوقاً اليه
بما نهواه معمور النواحي	نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً
على الوجه الجميل ولاصطباح	قسمنا الوقت فيه لاغتباق

وظلنا بين ريحان وراح وأوتار تساعدنا فصاح
وساعفنا الزمان بما أردنا فأبنا بين ريحان وراح
دير الأعلى

ومستقره بالموصل في أعلاها على جبل مطل على دجلة ، يضرب به المثل في رقة
الهواء ، وحسن المستشرف ، وفيه يقول الخالدي

قر بدير الموصل الأعلى أنا عبده وهواه لى مولى
لثم الصليب فقلت من حسد قُبِلُ الحبيب فى بها أولى
جُدلى باحداهنَّ نَحْوِها قلبى خبته على المقلَى
فاحمر من خجل وكم قطعت عني شقائق وجنة خجلى
وثككت صبرى عند فرقته فعرفت كيف مصيبة الثكلَى

دير باشهرا — على شاطئ دجلة بين سامرا وبغداد ، وفيه يقول أبو العيلاء

زلنا دير باشهرا على قيسه ظهرا
على دين يسوعى فما أسنى وما أورا
فأولى من جميل الفحل ما يستعبد الحرا
وسقانا وروانا وربطنا به عشرا

دير الثعالب — على مقربة من بغداد ، وبينه وبينها ميلان ، ومداه أكثر من

ميل وفيه يقول محمد بن جعفر العباسي

دير الثعالب مألّف الضلال ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ومُنَادى فيها أبجّ مقطّع الأوصال
وسقيته وشربت فضلة كأسه فرويت من عذب المذاق زلال

دير درمالس — في جانب من بغداد ، وهو نزه كثير الأشجار والبساتين ،
وفيه يقول أحمد بن حمدون النديم

يا دير درمالس ما أحسنك ويا غزال الدير ما أفتنك
لئن سكنت الدير يا سيدي فإن في جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب أما تنتهي عن شدة الوجد لمن أحزنك
ارفق به بالله يا سيدي فانه من حقه مكنك

دير قنّ — على مدى ستة عشر فرسخاً من بغداد ومسافة ميل واحد من دجلة
وفيه يقول محمد بن الحسن القميّ

يا منزل اللهو بدير قنّ قلبي إلى تلك الربا قد حنا
سقى لأيامك لما كنا نثار منك لذة وحسنا
أيام لا أنعم عيشاً منا اذا انتشينا وصحونا عدنا
وإن قنّ دنّ بزلنا^(١) دنّا حتى يُظنّ اننا جُنّا
ومسعد في كل ما أردنا يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله إذ ثنى وجس زير^(٢) غوده وغنى
بالله يا قسيس بابا قنّ متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتنى تجنّ أم إذا ما ماس أو ثنى

أسأت إذ أحسنت فيك الظنا

دير قوطا — على مقربة من البرادان بينه وبين بغداد ، وهو من أبهج الديارات
وأحسنها وأكثرها خمائل وبساتين . وفيه يقول عبد الله بن العباس بن الفضل
ابن الربيع

(١) بزل الخمر تقب إناؤها (٢) الزير الدقيق من الاوتار

يا دير قوطا لقد هيجت لى طربا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها
فى فنية بذلوا فى القصف ما ملكوا
وشادن ما رأت عيني له شهباً
إذا بدا مقبلاً ناديت واطربا
أقت بالدير حتى صار لى وطنا
وصار شماسه لى صاحباً وأخا
دير اللج - من ديارات الحيرة، وليس فى الحيرة موطن أحسن بناءً ولا أتره
موضعاً منه، وفيه قيل

سقى الله دير اللج غيثاً فانه
قريب إلى قلبى بعيد محله
يهيِّج ذكره غزال يحله
إذا رجَّع الانجيل واهترماً بدياً
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته
على بعده منى إلى حبيب
وكم من بعيد الدار وهو قريب
أغن سحور المقتلين ريب
تذكر محزون وحن غريب
بلا بل أسقام به ووجيب

ومن ديارات الشام

دير صليبا - وهو فى قبالة باب الفراديس من دمشق، وفيه يقول أبو الفتح
محمد بن على
جنةً لُقبت بدير صليبا
جته للمقام فيه يوماً فظللنا
شجر محدق به ومياه
مبدعاً حسنه كلاً وطيبا
فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به الشَّالكل مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بداراً به فوق غصن مائس قد علا بشكل كشييا
وشر بنا به الحياة مدا ما تطلع الشمس في الكئوس غروبا

دير الطور . وهو غير دير طور سيناء — ومكانه بين طبرية واللجون ، وحوله
الكروم والبساتين ، ومن دونه النور والمرج ، وفيه يقول الشابشتي
قد أبانت لي الرياض من الزهر غريب الصنوف والألوان
وبدا النرجس المفتوح يرنو من جنون الكافور بالزعفران
وقف الطلل في المحاجر منها ثم ماست فانهل مثل الجمان
يا غلام اسقني فقد ضحك الوقت وقد تم طيب هذا الزمان
أذن مني الدنان ، صب الأباريق ، استحث الكؤوس ، صف القناني
بادر الوقت واغتم فرصة العيش ولا تكذب فاعمر فان

دير المصلبة — وموضعه في ظاهر بيت المقدس ، وهو دير نزه بديع الموقع
حسن المنظر تحف به أشجار التين والزيتون والكروم ، وفيه يقول الحسن الغزالي

يا حسن أيام قطعت هنيئة بالدير حيث التين والزيتون
دير المصلبة الرفيع بناؤه تفدى عير تراه دارين
ومززين إذا تلوا انجيلهم وتمطفوا فخائم وغصون

.....

وسعوا بكاسات المدام وما دروا أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهم زماناً لم يزل عندى إليه تشوق وحنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعى لا مصر قاطبة ولا جيرون

دور المآثم

وامتد لسان الفتنة وأمعت وسائل العيث حتى انبتت بيوت الدعارة وهى التى كانوا يدعونها بيوت الكشاحنة بين دور الحرائر فى أشتات الحواضر، وكانت أثراً محتوماً من آثار احكام الترف وتفاقم الشهوات وازدياد الجوارى عن حاجة المحتاج، وكان ظهور تلك الدور فى دار السلام كفى دليل على عتور ريح الشهوة وامعان سلطانها فى النفوس . وقد بسط الجاحظ فى رسالة القيان حديث تلك البيوت وذكر كيف كانت تستباح فيها الأعراض وتتهك فيها الحرمات . والعجب أن ترى رجلاً من سَمَّار الملوك وندمائهم وذوى المنزلة الدانية منهم مثل اسحاق الموصلى يذيع شعره فى رثاء امرأة من صواحب تلك البيوت ، وذلك ما يقوله فى هشيمة الخمارة :

أضحت هشيمة فى القبور مقيمة وخلت منازلها من الفتيان
كانت اذا هجر المحب حبيبه دبّت له فى السر والاعلان
حتى يلين لما يريد قياده ويصير سيئه الى الإحسان

هذا اسحق نديم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ومغنيهم وشاعرهم فن منهم تنكر له أو تغير عليه من أجل ذلك ؟ !

وكما ذاعت بيوت الدعارة فى حواضر البلاد ذاعت كذلك الحانات فى غير سر ولا استخفاء ، وما ظنك بالخليفة الواثق يعقد حاتين احدهما فى دار الحرم ليفشاهما ويمتع نفسه بما يقال وما يُدار فيهما ، واليك فاسمع حديث صاحب مسالك الأبصار فى سياق ذلك :

قال حمد بن حمدون : كان الواثق يحب المواخير^(١) وما قيل فيها وما غُنّي به في ذكرها ، ففقد حاتنين إحداهما في دار الحرم والأخرى على الشط وأمر بأن يُختار له خمار نظيف جميل المنظر حاذق بأمر الشراب ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قُطْرَبُل^(٢) فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابتنان بهذه الصفة ، فجعلهم الواثق في الحاتنين وضم اليهم خدماً وغلماًنا وجواري رومية وأخدم النساء حانة الحرم والرجال حانة الشط ، وتقل اليهما طرائف الشرب وفرشهما من فرش الخلافة وعلق عليهما الستور وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة فكاتتا أحسن منظر وأبهاء .

فلما فرغ منهما أمر باحضار المغنين والجلساء ولم يدع أحداً من ضُرَاب الطنابير إلا أحضره وحضرنا وخرج الخمار هو وأولاده معه عليهم الأقبية المسهّمة وفي أوساطهم الزنابير المحلاة ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الصواني . وأخرجت تلك الدنان المذهبة فأقيمت بازاء المجلس الذي كان فيه جالساً فبُزِلت كما يفعل في الحانات ، وجعل يُوتى بالأنعوذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كل منهم ما يشتهي فيأخذ دناً ويحيى الى الخمار ويكتال منه بمكيال في إنائه كما يفعل في المواخير ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبهه من الرياحين .

فشرب الواثق شرباً كثيراً وأمر للخمار بألف دينار ولزوجته بألف دينار ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار .

وحكى الحسين بن الضحاك قال : قال لى الواثق : هل لك في حانة الشط ؟ فقلت إى والله يا أمير المؤمنين ! فقام إليها فشرب هناك وطرب وما ترك أحداً من الجلساء

(١) الماخور بيت الرية ومن يلى ذلك البيت ويقود اليه (٢) قطربل ضاحية من ضواحي بغداد الى الغرب والشمال منها وهي مأثورة بمجودة خمرها ورفاهة حاناتها وقد ذكر الشعراء واستهاموا بذكرها

والمغنين والحشم إلا أمر له بصله ، وكان من الأيام التي سارت أخبارها وذكرت في الآفاق .

فلما كان من الغد غدوت عليه فقال : أنشدني يا حسين شيئاً قلته في يومنا هذا الماضي فأنشدته :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا	عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دُعابات الامام ولا	طيب البطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالِعنا في غير فاحشة	إذا تُطَرَّبنا الطنبور أحيانا
وسلسل الرطلَ عمرو ثم عم بنا الس	قيا فألحقَ أخراناً بأولانا
سقيال عيشك من عيش خصصتُ به	دون الدساكر من لذات دنيانا

قال فأمر الواثق لى بصله سنية مجددة واستحسن الشعر وأمر أن يُغنى فيه ومن ذلك الغور العميق أصيبت الدولة العباسية بالداء الدوى والنازلة المضنية والحق أن هذا العصر العباسي سما بالعقل الانساني من طريق العلم والتفكير الى أبعد الآماد وأقربها من الكمال ، فهم قد ترجموا علوم الأمم السالفة وناقشوا مسائلها وابتكروا علوماً سواها في أقل من خمسين عاماً ، وهم قد تناولوا الأدب العربي فهدبوه وجملوه وألبسوه حلّة مذهبة اللفظ ضافية الخيال ، وهم بحثوا في الكتاب والسنة وقيدوا منهما مسائل التشريع وابتدعوا من العلوم ما يكشف عن أسرار القرآن الكريم ويوضح مقاصده ويبحث علومه وحقائقه ، ولكن ضعف النفس يطغى على قوة العقل فيقصرها كما تشيع آفة النبات في العود الناضر فتضنيه وتقصفه ثم تسرى منه الى المرج الخصب فتفتك به وتذهب بريجه

وكان في الدولة البررة والأتقياء ، ولكن التقى والبريكنان في الفتنة العاصفة ويسكنان في الهيضة الجاحمة ويخشيان صولة الألسنة الباغية . وماذا يقول البررة

الأتقياء في هذا العهد وهم يرون أمام العراق أبا حنيفة ينكر على الشاعر الخليع
يحيى بن زياد بعض خلاعته فيجيبه يحيى بقوله

ان كان نُسُكُكَ لا يَتِمُّ بغير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئت مع الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى وأنا المقيم على المعاصى
أيام تأخذها ونه طى فى أباريق الرصاص

فيسمع الامام بعض هذه الأبيات فيبكي اشفاقاً على نفسه من لؤثة ذلك الشعر
ومن اذاعة هذا السوء ويرسل الى الشاعر من يستوهب منه نفسه فبعد لأى يهبها له
هذا مثل من احتكام الشر بالخير والفجور بالتقى ونموذج من غلبة صوت المجان
والخلعاء على وعظ البررة الأتقياء فأبهم بعد ذلك يقدم على النصيح ويهم بالارشاد؟
على أن الفقهاء والعلماء نالوا كذلك من طيبات هذه الحياة ونعموا بمناعها وان وقف
أكثرهم عند حد السائغ البرئ من هذه الحياة . ولكن هذا السائغ البرئ اذا
سرى فى رجال الدين قعد بهم عن احتمال البلاء ومعاناة الأذى فى سبيل الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك ما كانوا عليه فى هذا العصر الحافل
بالمناعم والمآثم

المرأة العربية في العراق

كيف كان العباسيون ينظرون إلى المرأة

كان مما قضى الله أن ينشطر البيت الهاشمي في الدولة العباسية إلى شطرين متنافرين لا تعطفهما عاطفة الدم ولا تأخذهما وشيجة الرحم ، بعد أن أقاما منذ لحق النبي بربه أسرة واحدة لا تزعمها الحوادث ولا تفرقها الخطوب ، وبعد أن بُثت دعوة الخلافة لهما معاً باسم الرضى من آل بيت رسول الله . فلما ولى الخلافة أبو العباس السفاح سليل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نهض من بعده أخوه أبو جعفر المنصور ثم نظر المنصور إلى ولده محمد المهدي — لما كان ذلك عرف العلويون وهم سلائل رسول الله وأحفاد علي بن أبي طالب أن بنى عمهم الذين قاسموهم احتمال الظلم والخسف في عهد بنى أمية غلبهم على أمرهم واستأثروا بالخلافة من دونهم وهم أمس برسول الله رحماً ، وأدناهم من الخلافة يداً ، لأنها رَوِيَتْ بدمائهم ، ونهضت بأسماء الشهداء من قتلاهم ، فاحتجزوا بأنفسهم وأطالوا النظر فيما عساهم يفعلون ؛ وهكذا انصدع البيت العظيم ونظر بعضه الى بعض نظر المقهور إلى قاهره والموتور الى واثره ، ثم خرج إمامهم النفس الزكية محمد بن الحسن ومعه أهل المدينة وجمهور من أهل العراق على الخليفة أبي جعفر ، ولم يكن غير قليل حتى التقى الجيشان ، وبيننا رماح الفريقين مشجرة وسيوفهم متقطرة كان الامامان محمد بن الحسن وأبو جعفر المنصور يتساجلان الرسائل ويتناظران بالكتب ليكسب كل منهما عطف جمهور المسلمين وانحيازهم اليه ، وفي هذه الكتب يطاول كلاهما صاحبه بما له من فضل السبق وكرم العرق وقوة القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مما نخر به محمد أمومة سيدتي نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله وخديجة أم المؤمنين ، فكان مما أجاب به أبو جعفر « أما بعد فقد أتاني كتابك ، وبلغني كلامك ، فإذا جل نخرُك بالنساء لتُضِلَّ به الجفأة والغواء ، ولم يجعل الله النساء كالعنومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء » ومن ثم أخذ العباسيون يتناولون أمر المرأة بالتهوين وقرابتها بالوهن وعقدتها بالانحلال كلما سحت سانحة أو جدت داعية ، وأخذ شعراؤهم وعلمائهم وذوو آرائهم يُعِدُّون مَدَى ما بين الرجل والمرأة كأن الله تعالى لم يجمع بينهما في كل موطن من كتابه العزيز .

ولما قال مروان بن أبي حفصة شاعر بني العباسيين يخاطب العلويين ويمدح العباسيين

خلوا الطريق لمشرعاداتهم حطم المناكب كل يوم زحام
أرضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

بذل له الرشيد مائة ألف وعشرة آلاف درهم . وما زال شعراء العراق يتداولون هذا المعنى ترفلاً لبني العباس واستدراجاً لأموالهم ويكثرُونَ الأخذ به واللجاج فيه حتى قال محمد بن يحيى التغلبي رداً عليهم

لم لا يكون — وإن ذاك لكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهم
ما للطلاق وللتراث وأنا صلي الطلاق مخافة الصمصام^(١)

وما زالت المرأة مَبْتَهَم ابى جعفر ومثارأله فلم تقته حتى في آخر عهده من الدنيا وأول عهده من الآخرة حيث كانت آخر وصيته لولده المهدي « وإياك والاستماع إلى مشورة النساء وأظنك ستفعل »

(١) يريد بالطلاق العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يظهر إسلامه إلا حين رأى جيوش الرسول قاصدة مكة والشاعر يرى أنه لم يسلم إلا خوفاً من السيف

ولعل أوضح مظهر من مظاهر اساءة بنى العباس الى المرأة وتهوينهم من أمرها ودفعهم لها عن مواطن الحياة العامة ما كان من الخليفة المستنصر حين علم بولاية شجرة الدر أمر مصر، فانه على الرغم من رضاء شعبها بها واطمئنانه لحكمها كتب إلى أمراء الممالك يقول لهم :

« أعلّمونا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها ! أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » ثم ختم رسالته بانكار شديد ووعد وتهديد وتعلل بعد ذلك بقول من قال

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهم رأياً سنياً
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

ومن كل ذلك نعلم أن بنى العباس كانوا ينظرون إلى المرأة بمؤخر عيونهم حتى لا ينازعهم بنو عمهم زمام الملك باسمها ولا يساموهم بسموتها ، وأما تركهم الاماء يصرفن قياد الملك ويقدّبن زمام الرعية ، فما كان ذلك أكباراً للمرأة ولا تنويهاً بشأنها وانما كان استضعافاً لنزوات النفوس وانقلاباً لحكم الهوى

الصدمة الأولى

طلاق المكره

وكان على المرأة أن تستقبل الصدمة بعد الصدمة وتستعد للطمّة بعد اللطمّة في ظل هذا العهد، وكان أول ما ابتدعوه لها من العنت والمكروه يعين البيعة الذي يفرضون فيه على الرجل والسيف مُصَلَّت على عنقه أن يحلف بطلاق امرأته على أن يبقى على بيعتهم ولا يحيد عن دولتهم ولا يحول عن نصرتهم ولا يشايع أحداً سواهم

والذين يقسمون هذه اليمين هم ذوو الرأى والجاه من الساسة الكفاة والقادة الحُماة والأئمة الهداة ، وقد يكون الرجل منصرفاً بقلبه عنهم ميالاً بوجهه الى سواهم ، فما عسى أن تكون امرأته ؟ أيفرق بينهما طواعية لارادة الحكم القاهر وخضوعاً للبيعة المقهورة ؟ وكيف تخضع تلك الشركة التى أحكم الله عقدها وأوثق آصرتها لريح السياسة ونوازع الأهواء ؟ وهل يُقضى على امرأة آمنة فى سربها وادعة فى بيتها أمينة لزوجها ساهرة على أبنائها أن تقصى عن كل ذلك فى غير ذنب ولا جريرة ؟ ! ذلك ما كان يراه خلفاء العراق وفقهاء العراق ؛ ولكن صوتاً دَوَّى من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظم دويّه الشرق والغرب « بأن طلاق المكره باطل ويمينه لاغية » ومصدر ذلك الصوت أمام المسلمين وحجة الاسلام مالك بن أنس ، صدّع به بين سطوة السيف وصوله السيف ، ولم يخش فى الحق إلا ولا ذمة ولم يرع فى الله لومة لائم ، ودعم هذا الرأى الصارخ بأراء أئمة المسلمين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس وابن الزبير ومن اليهم من أشياخ الصحابة وأعلام الاسلام ، ولقد راع الخليفة الجبار أبا جعفر المنصور موقف الامام الأعظم مالك بن أنس فأمر بأن يضرب بالسياط عارى الجسد فشدت يده وضرب على جسده وعليها بالسياط حتى خلعت كتفه فما نبا له عزم ولا وهن له رأى ولا حُلّت له عقدة ولا زاغت منه عقيدة ، بل خرج من المحنة أثبت جناناً وأمضى لساناً وأشد إيماناً وأقوى برهاناً

التجنى على المرأة العربية

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب إلى عقيل بن عُلقَةَ المرى إحدى بناته لأحد بنيه فقال عقيل ، أقبَلُ يا أمير المؤمنين على أن تُجَنِّبني هُجَناءَ ولدك . فذلك

أعرابي لا شأن له أكثر مما لغيره من سراة أهل البادية وهو مع ذلك لا يعد المهجاء من أبناء الخليفة أكفاء لبناته ، لأن المرأة كانت في هذا العهد الأموي كما كانت في العهد الجاهلي أدق مشاعر العزة والكرامة من نفس الرجل ، أما الآن في هذا العهد العباسي فقد أخذ الرجل العربي يتجنى على المرأة العربية لأنه رأى من غيرها ما بهر لُبّه وسحر عينيه ، ولأن حميته وعصبيته تَرَدَّتَا تحت أثقال شهوته ، ومن ثم أخذ يُعرض بها ويوازن بينها وبين غيرها ، وذاع في هذا العهد قولهم : مَنْ أراد قلة المثونة وخفة النفقة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر ، واشتهر قول من يقول : عجبت لمن استمتع بالسراى كيف يتزوج المهاثر . وأول من جهر بهذا الصوت في المفاضلة الشاعر المبيح بشار بن برد ، ومن قوله في وصف قينة :

وأصفر مثل الزعفران شربته	على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً في ثيابها	تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلّة	سواماً ولم ترفع حدّاج قعود ^(١)
تميت به ألباننا وقلوبنا	مراراً وتحيين بعد هجود
إذا نطق صحننا وصاح لنا الصدى	صياح جنود . وجّهت لجنود
ظللنا بذلك الديدن اليوم كله	كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا	شهود وما ألباننا بشهود
ومن قوله :	

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش	بيؤس ولم تركب مطية راع
إذا قُذت أطرافها العود زلزلت	قلوباً دعاها للوساوس داع

وعلى أثر هذا الشاعر درج الشعراء من الغض من شأن المرأة العربية والزراية

(١) الثلة جماعة الغنم والسوام الابل الراعية والحداج الحفّة فوق البعير والقعود من الابل ما يفتعده الراعى في كل حاجة

بها والتهوين من أمرها . وإن يكن ذلك عجيبياً فأعجب منه أن تعتب المرأة على زوجها شغفه بأحدى القيان وانصرافه عنها فيجيبها في غير خجل ولا استحياء بمثل ما أجاب به محمد بن بشير الناشئ زوجته ، ثم يذيع هذا الجواب في الناس فيُتغنى به في بغداد وغير بغداد ، وذلك قوله :

لا تذكرى لوعة إثري ولا جزعا	ولا تقاسين بعدى الهم والجزعا
بل ائتسى تجدى إن ائتسيت أسى	بمثل ما قد فُجعتِ اليوم قد فُجعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحت	إلى سواك وقلب عنك قد نزعاً
إن قلتِ قد كنتِ في خفض وتكرمة	فقد صدقت ولكن ذاك قد نزعاً
وأى شيء من الدنيا سمعت به	إلا إذا صار في غاياته انقطاعاً
ومن يطيق خليعاً عند صوته	أم من يقوم لمستور إذا خلعا

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحرة بانصرافه عنها إلى غيرها من القيان وبأخذها بالتأسى بما أصيب به غيرها من جفوة وهجران ، وذلة وهوان ، ثم يلقيها من الحقائق أن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طلق العنان لا ترده قوة ولا يثنيه بيان . وفي ذلك كله ما يكشف لك عن صورة هذا العصر ويمثله أوضح تمثيل

الاعراء بالفساد

وكان كل ما حول المرأة يدفع إلى الاتم ونغرى بالفساد ، فقد أصبحت وإذا هي في ميدان فسيح تغمره اللذات وتدفعه المحرجات ، فمن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو ، ويستجدون ضروباً من الشهوات ، لا يتورعون لمُنْدية ولا يسكنون إلى روية ، ولا ينزعون عن حمية ، بل ساروا خفافاً تدفهم المآرب والأوطار ، وتحدهم الكؤوس والأوتار ، وعن يسارها الجوارى يجررن أذيال اللهو

ويجرين في مستبق الفساد ويتصدّين للرجال بما يستخفّ ألبابهم من خائنة الأعين
وما تخفى الصدور

وأنشأ الشعراء وهم ألسنة القوم وعنوان أدبهم يُغرّون الرجال بالحرائر ويضروّونهم
عليهن ويُشكّكونهم فيما عسى أن يبيدنه من عفة وما يتجملن به من إباء،
وكان إمام أولئك الغواة بشار بن برد، وهو أول من اتهم الحرّة في صياتها وأمانتها
وأطعم الرجال في اسلاب قيادها بعد إفراط عنادها، وذلك حيث يقول :

لا يؤسّتك من مخدّرة قول تملّظّه وإن جرحا

عسر النساء الى مياسرة والشئ يسهل بعد ما جمعا

ثم استن في غباره أبو نواس الحسن بن هانئ فأثى بيدع من القول في قوله :

كان الشبات مطية الجهل ومُحسّن الضحكات والهزل

والباعثي والناس قد رقدوا حتى أزور حليّة البعل

فانظر الى أى حد مرّنت الألسنة واطمأنت الأسماع الى مقال السوء وإشاعة
الفاحشة بين الناس ! فإذا تأملت ذلك فأشفق على قلبك أن يذوب أسى وأبق على
نفسك أن تذهب حسرات ! يا ويح هؤلاء الناس ! أفى دولة اسلامية تُظلمها خلافة
اسلامية يقال ذلك القول وليس في الناس راد ولا دافع !! أبلغ من فساد المروءة
ورقة الدين أن يتحدث شاعر الخليفة بأنه كان يدرج في ظامة الليل الى حرم البيوت
فيسلب ذات الزوج عفتها وفي المسلمين امام يقيم الحدود ويمنع الحرمات !! فأين
هذا من العهد الجاهلي الذي يقول قائله

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

أو العهد الاسلامي الذي يقول قائله

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الحذر

ما ضر جارى اذ يجاورنى ألا يكون لبيته ستر

أو العهد الأموى الذى يقول قائله

قالت - وقلت تخرجى وصلى
حبل امرى بوصالكم صب -

صاحب إذاً بعلى ! فقلت لها
القدر شىء ليس من ضربى

ثنتان لا أدنو لوصلهما
عرس الخليل وجارة الجنب

أما الخليل فلست غادره
والجار أوصانى به ربى

وراح هؤلاء الخلاء وأشباههم ينشرون من الأحاديث المبذولة ما يروض المرأة

الآيية ويستنزل النفوس الرفيعة . وقد حدثوا أن مطيع بن إياس مر يحيى بن زياد

وحامد الراوية وهما يتحدثان فقال لهما فيم أنما ؟ قالوا فى قذف المحصنات ! قال

أوبقيت فى الأرض محصنة فتقذفانها ؟ ! فهل هناك إغراء بالحرائر أشد وأشنع من

اتهامهن جميعاً فى أعراضهن .

ومن الشنع المهلكة للفضيلة المغرية بالرديلة تلك المقطعات التى تحدث فيها

الشعراء بأحاديث التمرد على العفاف وأرسلوها مؤنثة اللفظ سهلة المأخذ فتلقفها

المغنون والمغنيات وأنشئوا يرددونها فى المجامع والأندية وبين الستور والحدود

ومما هو شبيه بذلك قول بشار

عجبت فطمة من نعتى لها
هل يحيد النعت مكفوف البصر

بنت عشر وثلاث قسمت
بين غصن وقضيب وقر

درة بحرية مكنونة
مازها التاجر من بين الدرر

أرخت الستر وقالت ويلنا
من ولوع الكف ركباً الخطر

أمتاً بدد هذا لعمري

....

أقبلت مغضبة تضربها
واعترها كجنون مستعر

أيها النوم هبوا ويحكم
وسلوني اليوم ما طعم السهر

ولم يكن الرجال وحدهم هم المغرین للنساء باقتحام الآثام بل إن الجوارى قلن في ذلك أشد مما قال الرجال وأغرین النساء بأكثر مما أغروا ! ولولا أن ذلك كله مما لا يستجيز القلم ذكره لأثبتنا منه ما يدل على باقيه

حلول الكارثة

كذلك توالى النذر المؤذنة بانصباب الخطب وهبوب العاصفة ، وأى نفس تقدها تلك المحن ولا تهن ؟ وأى قلب تبلوه تلك الفتن ولا يميل ؟ وأى عزم ترضخه تلك المآثم ولا يفل ؟ وأى ضمير ترهقه تلك المحارم ولا يأثم ؟ وأى عين تأخذها تلك المخايل ولا تطمح ؟ وأى قدم تدفعها تلك المزالق ولا تنزل ؟ وكذلك حقت كلمة الله على الأمة المترفة أن يندفع نساؤها في تيار الزمن ، وكان سبيلهن أن تبرجن كما تبرج الاماء ، وتصدين للرجال كما تصدين ، وبذلن من الزمام كما بذلن لإقليلاً منهن أمعن في الفرار ، فلزمن المنازل ، واتخذن المسابح ، واتقطعن الى المحاريب . وكذلك كانت بلاد العراق مسارح للتبرج والتهتك ومعابد للترهد والتنسك ، وفي كلا الوطنين فقدت المرأة أنوثتها التى تنهج لها سبيل الزوجية السعيدة والأمومة الرشيدة ، وكان لليتين الكبيرين في هذا العهد — بيت العباسيين وبين العلويين — أثر واضح في توجيه المرأة الى ناحية من تينك الناحيتين

بيت بنى العباس

وكان المهدي أول ناشئ في مهاد الدعة وبين ظلال النعيم من بنى العباس ، وقد ترك له أبوه من ذخر المال ما لا يُنفدُه سرف ولا يفنيه تلف ، فاتسع له بذلك مجال اللهو والترف . ولقد علمت ما حدثك من نفاذ جواريه إلى ذات نفسه

وعلى شئون ملكه، وعلمت ما كان من صرف وجوه الرعية الى دار الخيزران حتى
فشت فيها القالة وأرجفت بها الألسنة وساء عنها الحديث

ولم يكن المهدي في غيرة أيه بل كانت الغيرة أضعف نواحيه . سمع أبا العتاهية
ينشده مدحه فيمن أنشده من الشعراء فكان أول قصيدته غزلاً واضحاً وتشبيهاً
صريحاً بفتاة من جوارى قصر الخلافة، وذلك ما يقول

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فأحملَ إدلالها
والا فقيم تجنت وما جنيت سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للاما م قد أسكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطأ تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب في اللوم عذالها

فلم يُرَ الغضب على وجهه ! بل لقد اختص هذا الشاعر دون غيره من سائر
الشعراء بالجزيل من جائزته ، وأشد من ذلك أنه حاول أن يستوهب ابنته عُمَيلةَ
تلك الجارية لينحها الشاعر وكاد يتم ذلك لولا أن توسلت الفتاة بألا يجعلها منحة
لهذا الشاعر الديم المنظر الداني من الموت ، وشفعت فيها ابنته فبدله الخليفة منها
مالاً كثيراً

ولعلك تقول هي جارية تشرى وتمنح فليس من شأن المهدي أن يستشعر
الحفيظة لها والغيرة عليها ، قلت فهلا حق له الغضب من نسبتها اليه وقرن اسمها
باسمه ! وأى الخلفاء كان يستمع قول أبي العتاهية : ألا إن ظيماً للخليفة صادني
ثم يتركه وفيه عين تطرف

ودعنا من الجارية : هذه ابنته « البانوقة » أعز الناس عليه وأحبهم اليه وأوحد
أهل دهرها أئقاً وجمالاً ، فهل يحول في خيال أو يخطر ببال أن يُلبسها أبوها ثياب

الجند ويقدمها بين يدي موكبه في طريقه إلى الحج ، وهي في نضرة العمر وريع الشباب ! أو كما يقول الطبري « كان المهدي في موكبه يسير وابنته البانوقة تسير بين يديه في هيئة الفتيان عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثديها القباء لنهودها . . . !

فهل رأيت كيف أبرز المهدي ربيعة الخلافة وسليمة العباس وعقيلة بنى هاشم ونصبها للعيون في زى يحتذب الأبصار ويستقيد النظر ؟!

ولم تطل حياة البانوقة بل هصرها الموت في مقتبل الشباب فاختل الطريق لأختها عُلَيَّة والعباسة

فأما عليّة فكانت شاعرة مغنية جميلة متجلمة ، روت لها كتب الأدب كثيراً من الشعر الغنائى ، وفي كثير مما رووا تشبيب بفتين من ممالك الرشيد يُدعى أحدهما طَلًّا والآخر رشا ، وربما زجرها الرشيد فصحفت اسميهما وجعلت أولهما ظَلًّا والثانى زينب وهما تصحيف طل ورشا

ومن قولها في طل

أيا سروة البستان طال تشوقى	فهل لى إلى « ظِل » إليك سبيل
متى يلتقى من ليس يُقضى خروجه	وليس لمن يهوى إليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا	فيلقى اغتباطاً خلّة و خليل
ومن قوله فيه كذلك	

سلم على ذاك الغزال	الأهيف الحلو الدلال
سلم عليه وقل له	يا غل ألباب الرجال
خليت جسمى ضاحكا	وسكنت فى « ظل » الحجال
وبلغت منى عناية	لم أدر فيها ما احتيال

ومن قولها في رشا

وجد الفؤاد «زينا»
أصبحت من كل في بها
ولقد كنت عن اسمها
وجعلت زينب سترة
قالت وقد عز الوصا
والله لا تلت الموَدَّ
وجداً شديداً متعباً
أدعى سقيماً منصبا
عمداً لكيلاً تفضبا
وكنتم أمراً معجبا
ل ولم أجد لي مذهبا
ة أو تنال الكوكبا

ومن قولها فيه وقد حلف ألا يشرب النبيذ

قد ثبت الخاتم في خنصرى
حرمت شرب الراح إذ عفتها
فلو تطوعت لعوضتنى
فيا لها عندي من نعمة
يا زينا قد أرقّت مقلتي
إذ جاءني منك تجنيك
فلست في شيء أعاصيك
منه رضاب الريق من فيك
لست بها ما عشت أجزيك
امتعني الله بجيئك

وكان الرشيد يستمتع غناها غير متحرج، وذكر صاحب الأغاني أنها تغنت وأخوها يزمر لها بقولها

تجيب فان الحب داعية الحب
تبصر فان حدثت أن أها هوى
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا
وكان في جبين علية سعة غير مستحسنة فاخترعت له العصابة وهي شقة من

الحرير محلاة بصنوف الجوهر فسترت عيها وزادتها جمالاً

وأما العباسة فقد قال المؤرخون في أمر صلتها بجعفر بن يحيى البرمكي ما قالوا،

وذكروا أن هذه الصلة هي التي حملت الرشيد على قتله جعفرًا وإيقاعه بالبرامكة ؛
 كذلك كان الناس يعرفون قبل ابن خلدون ، فلما أنشأ هو مقدمة تاريخه جعل
 هذا القول من أوهام المؤرخين وقال في سبيل ذلك : « وهيأت ذلك من منصب
 العباسية في دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه
 إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظماء الملة من بعده ؛ العباسنة بنت محمد المهدي
 ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السَّجَّاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله
 ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة
 محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وامامة الملة ونور الوحي ومهبط
 الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد بيداوة العروبة وسداجة الدين البعيدة عن
 عوائد السرف ومراتع الفواحش ، فأين يُطَلَّب الصون والعفاف إذا ذهب عنها
 أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى
 وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى الأعاجم بمِلَكَّة جده من الفرس أو بولاء
 جدها من عمومة الرسول وأشرف قريش ، وغايته أن جذبت دولتهم بِضَبْعِهِ
 وَضَبْعِ أَيْهِ واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الأشراف ، وكيف يسوغ للرشيد أن
 يصهر الى موالى العجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر
 المنصف لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها
 واستنكره ولجَّ في تكذيبه . وأين قدر العباسية والرشيد من الناس ؟ وانما نكب
 البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد
 يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه على سلطانه . . . »
 ذلك قول ابن خلدون ؛ وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب اليه لولا أنه
 ناقش المؤرخين بمشاعره وبعض عقله ، وراح يعتمد على نخامة اللفظ ورنه الايقاع

وكل ذلك ليس خليقاً بأن يحو خبراً ذاع ويقطع حديثاً نفي ، وكان أولى بابن خلدون حين ذكر للعباسة شرف المنصب وعلو النسب أن ينظر نظرة الى الأم فهي وحدها مرجع ما عليه البنت من علو أو هوان ، بل مرجع ما عليه الولد من بعد همة أو فتور عزيمة ، تلك الأم التي نزع الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم اليها بقوله « أنا ابن العواتك من سُلَمٍ » . وكل ما يتصل به الأبناء من عظمة البيت وشرف الأسرة ونبل العشيرة إنما يتضاءل فيما يرتضونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . ومن أم العباسة ؟ أليست مغنية من القيان اشتراها المهدي وكان من أمرها أن أصبحت أم ابنته ؟ أفي قدرة هذه أن تنشئ فتاة تحفظ ما لبيتها العظيم من سمو وجلال !

وان النفس لا تطمئن لما ذكر بن خلدون عن نكبة البرامكة ، فان المثلة الشنعاء التي مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل واحدة على باب من أبواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه تقريباً لم يكن بين أخوين أليفين — كل ذلك لا يكون إلا حين تتقد الغيرة وتهتاج الحفيظة ويصاب الغرض ، وما أظن ما قال القائلون من احتجان الأموال وممالة بني علي بن أبي طالب إلا تمويهاً للأمر وبلاغاً للعذر . ولو كان ذلك حقاً لقتل البرامكة على سواء ولم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقي رهائن السجن ، بل لكان أولى بالقتل يحيى أبو جعفر لأنه هو الذي استنّ لبيته سياسة الرفق والمودة للعلويين

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة ، وعلى المرح والدعابة كذلك ، وكانت ابنته خديجة تجدد في أثر عمة أبيها عليّة من إرسال الشعر في التشبيب وابتكار الغناء والتلحين ، ومن قولها في خادم من خدم أبيها

بالله قولين لمن ذا الرشا المثقل الردف الهضم الحشا

أظرف ما كان اذا ما صحا وأملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له أرسل فيه طائراً مُرَعِشاً
يا ليتنى كنت حماماً له أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهى من رقة أوجعه القوهى أو خدشا

وحسبنا أن نقف بالقلم عند هذا الحد ونكتفى منه بأن نقول إن نساء بيت
بنى العباس قد أخذن مآخذ الرجال من السرف والاندفاع ، وما نريد أن نقول إنهن
تجاوزن المرح والدعابة الى ما وراءهما من العيث والفساد ، واذا زلت هنالك قدم
أو طمحت عين أو لفظ لسان فان ذلك لا يصدع البيت ولا يثلم الأسرة الا أن
يقال أن ترف الحضارة ورونق النعيم قد رفعنا عن تلك البيئة كلفة الدين وخلصنا منها
عذار الوقار

بيت العلويين

أما نساء هذا البيت فقد عكفن على التبتل وأنسن بالوحشة واتقطعن عن
الناس ؛ وما ظنك بامرأة لا تنتقل من فاجعة الا الى فاجعة ، ولا تصير من نازلة الا
الى نازلة ، قدرض الحديد عظام أهلها ، ونهلت السيوف من دمائهم ، وراح وحش
الفلا بأشلائهم ، وكأن بينهم وبين كل دولة ثاراً لا تسكن نأتمته ولا تروى غلته
حتى لقد استجاز قُسمائهم وبنو عمهم أن يقودوا الطفل من ملعبه الى مذبحه ، واليك
فاسمع احدى حوادثهم

قال الطبرى : ذكر أبو يعقوب بن سليمان قال : حدثتني حميدة العطارة
— عطارة أبي جعفر — قالت : لما عزم أبو جعفر المنصور على الحج دعا رَيْطَةَ
بنت أبي العباس امرأة المهدي — وكان المهدي بالرى قبل شخوص أبي جعفر —
فأوصاها بما أراد وعهد اليها ودفع اليها مفاتيح الخزان وتقدم اليها وأحلفها ووكد

الايان ألا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحداً إلا المهدي، ولا تطلع هي إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معها ثالث حتى يفتح الخزانة، فلما قدم المهدي من الرى الى مدينة السلام دفعت اليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور أنه تقدم اليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليها أحداً حتى يصح عندها موته، فلما انتهى الى المهدي موت المنصور وولى الخلافة فتح الباب ومعه ربطة فاذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفي آذانهم رقع فيها أنسابهم واذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحُفرت لهم حفيرة ودفنوا فيها

تلك فعلة من فعلات أبي جعفر بأبناء عمه، وهي مثل واحد من كثير لاحدله وما كان الرشيد بأنتم يداً، ولا أرق كبداً من جده المنصور، بل كانت سيوفه الطائشة كحم النار ترمى يميناً وشمالاً على رؤوس الأبرياء من بنى عمه، حتى لقد كانت سياسته فيهم سياسة إبادة وإفناء. فأين تقرأ العيون الباكية، وكيف تسر القلوب الدامية، وهل يطمئن بالحياة من تنذره كل لحظة بحيف نازل أو كيد محيق لذلك لم يجد نساء هذا البيت فرجة من الهم ولا متسعاً للسرور. ولذلك اثنتسن بالوحشة، واسترحن إلى الوحدة، وانعطفن إلى الدين، حتى لقد نشأ جوارى ذلك البيت على غير ما ينشأ عليه جوارى ذلك العصر. فما كانت الجارية تدخل في رقم حتى تتلقاها إحدى نسائها فترويها الحديث وتعلمها الفرائض

وقد حدثوا أن فتاة رومية من بيت القياصرة، وفدت على أبي محمد الحسن العسكري، فلما رآها راغبة في مصاهرة بيت النبوة، دعا أخته حكيمة فقال: خذها إلى منزلك فعلمها الفرائض والسنن

ومما أذكر في وصف هذين البيتين وغقد الموازنة بينهما قول أبي فراس الحمداني

من قصيدة يرد بها على ابن سكرة الهاشمي العباسي . وكان ابن سكرة قد قال قصيدة
يعدح فيها بنى العباس ويعقد فيها لواء الفخر عليهم :

خلوا الفخار لعلمين إن سئلوا عند السؤال وعمالين إن علموا
تبدو التلاوة من أياتهم أبداً ومن يوتكم الأوتار والنغم
إذا تلوا آية غنى إمامكم « قف بالديار التي لم يعفها القدم »
منكم عليّة أم منهم وهل لكم شيخ الغنين ابراهيم أم لهم
ما في يوتهم للخمر معتصر ولا يوتهم للشر معتصم

اتصال البيتين

وأقام هذا البيت أبعد ما يكون عن بيت بنى العباس حتى لا يجروا أحد من
المتصلين بالعباسيين أن يصهر إلى علوى خوفاً من الخليفة أن يعرضه على السيف
ويبقى العلويون في منعرل سحيق من الناس ، حتى إذا استخلف المأمون أراد أن
يصل الجبل ، ويرأب الصدع ، ويحسم الشقاق . فدعا بعلي بن موسى الرضا عميد
هذا البيت وزعيمه والامام المرتضى من آل البيت ، فقلده ولاية عهد الخلافة ،
وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج ابنه محمداً ابنته الثانية أم الفضل ، وضرب النقود
باسم على ، وقرن اسمه باسمه على المنابر ، وخلع الشعار الأسود الذي اتخذته العباسيون
عنوان دولتهم وبذل منه الشعار الأخضر الذي اختاره العلويون شارة إمامتهم
وكان من أثر تلك الخطة التي اختطها المأمون أن دوت صيحة بنى العباس
بالثورة على الخليفة القائم . واحتشدت جموعهم لقتاله ، وخلعوا عن أعناقهم بيعته ،
وولوا عمه ابراهيم بديلاً منه . وقد قابل المأمون كل ذلك بجيش من مضائه ودهائه
منج فيه الشدة باللين ، والوعد بالوعيد . ثم ما زال بأهله حتى أخذ جرتهم ، وأطفأ
ثورتهم ، وإن كانت صدورهم لم تزل محتية على الحقد والحفيظة . وإذا كانت الحالة

السياسية قد صفت مظاهرها ، فإن الحياة الزوجية في الأسرة المؤتلفة كان يشوبها الكدرويفسدها الشقاق ، وذلك شأن الزواج الذي لا تأتلف فيه نشأة الزوجين وأسلوب تربيتهما . وكان الخلاف بين محمد وزوجه أشد مما كان بين أيه وزوجه ، تريد المرأة أن ييسط لها زوجها بساط النعيم ، ويفسح مجال السرور ، ويجلو عينيها بهجة الملك ، ويأبى الرجل إلا التضيق عليها في ذلك كله ، وكلاهما في الطرف القصى من صاحبه . وكثيراً ما كانت تشكوه إلى أيها المأمون فيقول لها : يا بنية أطيعيه واحتمليه ، فانه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم

القطيعة

على أن الجبل ما لبث أن قطع من أحد طرفيه ، فإن علياً مات بعد قليل من زواجه على أثر أكلة عنب قيل إنه مسموم ، وقيل إن امرأته هي التي سمته ، وقيل إن المأمون هو الذي أوحى ذلك الى ابنته ليعود إليه ود بني أيه . ثم قطع الطرف الثاني في عهد المعتصم حين مات محمد بن علي ، ويقول الشيعة إن امرأته كذلك هي التي قتلتها لتفصم عقدة الحياة بينها وبينه ، وبذلك عاد البيتان الى قديم ما كانا عليه من فرقة وشتات . وكان حُلماً فانتضى ، وكان عقداً فانتثر . فان الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

الاقداء

وكان لا بد للمرأة أن تأتسى بأحد هذين البيتين : فأما بيت بنى العباس فقد دخل في زمرته جمهور النساء وأخصهن ذوات الجاه والثراء لأن كل ما في الحياة من لهُو واندفاع ينزع بهن الى تلك الناحية ، ومن شأن المقلد أن يندفع في تقليده الى أبعد ممن يحكيه ، وكذلك خرج النساء الى مستبَق المرح ومغتَم السرور ، وإذا استثنيت

ما يسوقه ابن خلدون من جدل وتأويل فإن المؤرخين مجمعون على أن النساء قطعن الحوائل وكسرن القيود ، ولم يكن سرا حديث ملاعب بغداد ومبانيها ودورها وقصورها وما أقيم فيها من عزف وقصف وما ساد عليها من لهو ولعب ، فقد توأصفه شعراء هذا العصر ومؤلفوه ، ولولا عفة القلم لنقلنا الكثير الموفور مما وصفه أبو نواس في مقدمة ديوانه وما ساقه أصحاب الأغاني وكتاب بغداد والمنظوم والمنثور والعقد الفريد وصاحب بلاغات النساء في باب المجون وأشباههم من المؤرخين والأدباء وفي كلها من حديث المراح والجماح ما لا نراه إلا قطعاً للصلة بين نساء هذا العصر ونساء العصر القديم ، وهل كان يُقدَّرُ للمرأة غير ذلك المقدور وقد تقاسمتها الفتن وتنازعتها الأهواء . ومن البدائنه الظاهرة في تاريخ العراق أن المرأة في هذا العصر شربت النبيذ . ومن حديث الطبري أن نساء أقرن بالخر بين يدي المهدي ومن رواية الأصمعي أن أعرابية نزلت بغداد فسقوها النبيذ ، فلما أخذتها النشوة قالت : أيشرب نساؤكم هذا ؟ قالوا نعم ، فقالت زنين ورب الكعبة

ومما يزيح لنا النقاب عن مبلغ ما أصاب الأخلاق من وهن وانتكاث قول علي ابن هشام وهو ممن تصلحهم بيت الخلافة صلة الدم وآصرة المصاهرة : عشقت ألف امرأة ثم انتهيت على ألا أثق بامرأة . أفرايت كيف لانت مقادة النساء وهانت كرامتهن وأذيل فضل ما لهن من إباء وحياء حتى استعصى على الخير بهن أن يثق بواحدة منهن . كذلك أقام الكسائي إمام اللغة والأدب دهره غير متزوج لأنه لا يثق بامرأة ، وكثير من علماء هذا العصر درجوا ذلك المدرج فلم يتزوجوا

النِّسَاءُ

وكان من شأن تلك الحال أن تدفع كثيراً من المستورين والمستورات إلى التحرج منها والانحياز بأنفسهم عن مجالها والابتعاد عن مخالطة من يتصلون بها ، وركبوا

في ذلك الحرج تركباً خشناً لاسواء فيه ولاصفاء، فاستوحشوا من الدنيا وانقطعوا عن الناس وتجاغت جنوبهم عن المضاجع وتناءت قلوبهم عن المطامع، وهذا الفريق من الناس هو الذي اتخذ أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم غاية مرومة وستة مأمومة، ثم ما لبثوا أن تجاوزوا بالنسك أبعد حدوده فحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله فلبسوا الخشن الشائك وأكلوا اليابس القفار وأنسوا بالظلمة الحالكة واستوطنوا الصلب العسير واندفعوا في سبيل ذلك كما يندفع المهر الأرن فاعتسفوا الطريق إلى غايته واقتحموا الصعاب إلى مداها

وكان الزاهدات من النساء أشد اندفاعاً في الزهد وانقطاعاً إلى العبادة وامتناعاً عن طيبات الحياة من زهاد الرجال، فلا تراهن إلا صائتات قائمات، باكيات والهيأت وخلق باندفاع المتبرجات المتبذلات أن يقابله اندفاع التنسكات المتبتلات، فان حسب المرأة أن تشعر بالموجدة على شيء حتى تفر من كل ما يلبسه أو يحيط به لذلك كان العراق أحفل بلاد الله بالخيرات الصالحات اللواتي نهجن طريق الزهد عن فرط علم ورسوخ عقيدة لا عن حماقة وجهالة كما تجد في كثير من عرفن بالنسك والتصوف من أشتات البلاد

ورأس هؤلاء الناسكات رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية، وكانت مضرب المثل في تدله القلب واحترق الكبد حباً لله وايثاراً لرضاه، وكانت على تواصل صيامها وقيامها وتتابع زفرتها وتدفع عبراتها تستقل كل ذلك في جنب الله. قال يوماً شيخ الزهاد سفيان الثوري وهو عندها: واحزنأه! فقالت: لا تكذب! بل قل: واقله حزناه، ولو كنت محزوناً لم يتهياً لك أن تتنفس

ومن حديث خادماتها عبدة بنت أبي شوال - وكانت أشبه الناس بها في نسكها وعبادتها - : كانت رابعة تصلي الليل كله فاذا طلع الفجر هجمت في

صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة : يا نفس كم تنامين ؟ ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأبها أمد دهرها حتى ماتت ، ولما حضرتها الوفاة دعتني وقالت يا عبدة : لا تؤذنى بموتى أحداً ، وكفني في جبتى هذه — وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون ومن قولها : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً . ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

ومما أثر عنها من الشعر قولها في ذات الله تعالت ذاته :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليلس مؤانسٌ وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى
وكانت وفاتها رضوان الله عليها سنة خمس وثمانين ومائة
عبدة البصرية

وهي امرأة عكفت على العبادة وأفرطت في السهر وأسرفت في البكاء حتى كف بصرها .

سمعتُ قائلًا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرًا ! فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب عن الله أشد من عمى العين ، وددت أن الله وهب لي كنه محبته وأنه لم يبق مني جراحة إلا أخذها

وقدم ابن أخ لها من فراق طويل فبُشِّرَتْ به فبكت ، فقيل لها : ما هذا واليوم يوم سرور ! فازدادت بكاء ، ثم قالت : والله ما أجدر للسُرور في قلبي مسكنًا مع ذكر الآخرة ، ولقد أذكرني يوم قدومه يوم القدوم على الله ، فَمِنْ بين سرور ومشور ، ثم أغمى عليها وسقطت

فاطمة بنت عباس، المفتية، المدرسة، الفقيهة، العابدة، العالمة، الصوفية، المجاهدة وكل هذه ألقاب خلعها عليها أهل دهرها، وكلها صفات وصلت بها متهى حدودها. كانت تصعد المنبر وتعظ النساء. وانتفع بتريتها والتخرج عليها خلق كثير. وكانت عالمة موفورة العلم فى الفقه والأصول، وعلى سُنَّتها سارت ابتها زينب فكانت تعظ النساء وتخطبهن فى حياة أمها وبعد موتها

غفيرة بنت عثمان البصرية

كانت من أسرة عريضة الجاه موفورة الغنى، ولكن ذلك كله لم يطب لها فخرجت عنه وتزهدت وتنسكت وهجرت الراحة والمنعام إلى الصلاة والقيام وقعت من العيش برغيف وقدر ماء، فذلك قوتها كل يوم

وكانت أشبه الناس برابعة فى الوحشة من الدنيا والتدلة فى ذات الله. هاجرت إلى بيت المقدس وأقامت أربعين عاماً تقف الليل كله بباب الحرم تصلى حتى يفتح الباب فتكون أول داخل وآخر خارج

مُعَاذَةُ بنت عبد الله العدوية البصرية

روى عنها قتادة والجرمى وأيوب وغيرهم. وكانت إذا شملها النهار قالت لعلى أموت اليوم فلا تنام، وإذا جنَّها الليل قالت لعلى أموت أموت الليلة فلا تنام. وكانت إذا اشتد البرد لبست الرِّقاق من الثياب لينعها البرد طيب المنام فلا تنام.

ومن قولها: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلمة القبور. وكانت تصلى فى اليوم واللييلة ستمائة ركعة، ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاماً

وأكثر ما كان الزهد والتنسك فى البصرة، وتلك كانت شهرتها من قديم عهدها ومن حديث هذا التبذل والتبتل تعلم أن المرأة تمردت على الحياة النسوية الكاملة، فليس فى هؤلاء ولا أولئك مثل واضح للمرأة التى جعلها الله مبعث الود والرحمة للزوج

ومغرس النبل والكمال للولد، بل هي امرأة نائرة على النظام نافرة من الجماعة، وما لهذا خلق النساء

ومن العجيب أن المرأة المتنسكة انصرفت عن الزواج! كأنها تعلم أن نسكها لا يتم إلا إذا انفردت عن سائر الناس!

ومما رواه صاحب (مصارع العشاق) من حديث فتاة من المتبتلات نظر إليها فتى من جبرتها فهم بها فأومرت في الزواج منه فاعتذرت. أقول من هذا الحديث تعلم كيف يصرف هذا الصنف من النساء عن كل ما يتصل بالحياة وحديث ذلك أن هذا الفتى رأى الفتاة فشغفته حباً فكم أمراً حتى انحل جسمه وأشفى على الموت، ثم كاشف بأمره امرأة من أهله فذهبت إلى الفتاة — وكان حديث مرض الفتى قد انتهى إليها — وحدثها ساعة، ثم قالت لها: يا بنية أبليت شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التي أنت عليها! قالت يا عمته أية حال سوء ترىني عليها؟! قالت لا يا بنية، ولكن مثلك يفرح في الدنيا ويلذ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لك غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته، فيجمع الله لك بذلك الدارين جميعاً، فوالله ما حرم الله عز وجل على عباده ما أحل لهم من الطيبات. فقالت يا عمته، أو هذه الدار دار بقاء لا انقطاع ولا فناء، فتكون الجوارح قد وثقت بذلك، فتجعل الله تعالى شطرها وهدمها وللدنيا شطرها، فتعد الجوارح إذا التعب راحة والكد سلامة؟ أم هذه الدار دار فناء وتلك دار بقاء ومكافأة. والعمل على حسب ذلك، قالت يا بنية لا، ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بياقية على أحد ولا دائمة له، ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعات صدقة منه على النفوس تنال فيها ما أحل لها مخافة الشدة عليها. فقالت الجارية: صدقت يا عمته، ولكن لله عباد قد علموا وصح في همهم شيء من ذخر وذخروه عنده، فجعلوا هذا الشكر

ذخيرة عنده ، اذ لم تكن الدنيا كاملة لهم ، ولا هم منتقصون شيئاً قدموه لأنفسهم ،
وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جملة الكرامة . وان كلامك
ليدلى على أن تحته علة وهى التى حملتك على مناظرتك لى على مثل هذا ، وقد كنت
أظن قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله عز وجل والخدمة له
والتقرب اليه بالأعمال الزكية التى تبلغ رضاه وترفع عنده ، فقد أصبحت متغيرة عن
ذلك العهد الذى كنت أعهدك عليه ، فأخبرينى بما عندك وأوضحى لى ما بقى فى
نفسك ، فان يكن لك جواب أعتك ، وان يكن فيه حظ تابعتك ، وان يكن
أمراً بعيداً عن الله تعالى وعظمتك . قالت يا بنية ! فأنا مخبرتك به ، والذى منعى من
القائه عليك هيبتك ، فأما إذ بسطتني وعلمت أن عندى خبراً وأمرتني بالقاءه فان من
قصة فلان كذا وكذا ؛ قالت قد ظننت ذلك ، فأبلغيه منى السلام وقولى : أى أخاه ،
إنى والله قد وهبت نفسى للمليك يكافى من أقرضه بالعطايا الجزيلة ، ويعين من
انقطع اليه وخدمه بالهمم الرفيعة ، وليس الى الرجوع بعد الهبة سبيل ، فتوصل
الى مولاك ومولاي بمجابه ، وأسرع اليه فى غفران ما قدمت يداك من عمل لم يهبه
ولم يرضه ، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله وأول ما يجب على أن أعظك به ،
فاذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات
الصدور ، فانه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصياً وعن أمره مولياً ناسياً — أن ينسى
ذنوبه والاعتذار منها ، ويلزم نفسه مسئلة الحوائج لعلها داعية له الى الفتنة إن لم
يتداركه الله بكرمه ، فاستنقذ نفسك يا أخى من مهلكات الذنوب فان له فضلاً
وسع كل شئ ، ولست مؤستك من فضله إن رآك مبتتلاً اليه ، ومما قدمت يداك
معتذراً أن عين بى عليك ، فانه الملك الذى يجود على من ولّى عنه فكيف من أقبل
اليه ، فلا يشك أنه اذا جاد على من تولى عنه يكون لمن أطاعه مكرماً واليه وقت

الندامة مسرعاً ، وما أبقيت لك حجة تحتج بها ، فليكن ما أخبرتك به نصب عينيك ، ولا ترادنى في المسئلة فلا أجيبك ، والسلام .

قلما بلغته مقالاتها زاد وجدده بها حتى خولط عقله ومات بعقله .

وبعد ، فهذه صورة ما كان عليه نسوة هذا العصر من غلو في كل شيء ، ولست أعنى بذلك أن نساء العراق لم يبق منهن إلا الجاحمة في أحد هذين الطريقين فما زال فيهن المستورات اللواتي سرن في الطريق السوى الذى لا اعتساف فيه ولا انحراف ، ولكن هؤلاء لم يكن فى أسلوب حياتهم شيء يستحق التنويه به ولا مزية تستوجب الاشادة بها وهن مع ذلك قل في النساء

المرحلة الثانية

الكساد

الزواج قيد من قيود الاجتماع أو ثقة الله بين الرجال والنساء لتتكسر به حدة الشهوة الطائشة ، وترعى به سورة النفوس المندفعة ، فإذا تم لها ذلك ، سمت الروح وصفت السريرة ، وغلبت الفضيلة ، وسار الناس إلى الكمال في نهج واضح وأمد قريب . لذلك لا تجدد الأمة الغوية تنزع إلى الزواج ، لأنها تريد إثارة الشهوات لا إقامتها ، وإيقاظ الفتن لا إخمادها ، وتضرية النفوس لا ترويضها ، فإذا نزع إليه منها نازع فبقدر ما يقضى نهمة جامحة ، أو يسد مطعماً مؤتسباً ، ثم يتركها كما يترك اللقي المهل ، أو يطويها كما يطوى الثوب اللين . وذلك ما كان على أتم وجوهه في حواضر العراق ، فقد كسد النساء حتى أصبحت المرأة تطلب بالدينار والدينارين ففساق ، وهى تعلم أنها ستسلم حين اللقاء تسليم الوداع . ومما ينبئك عن هذا البوار ما حدث صاحب النجوم الزاهرة ، أن عالماً من علماء بغداد زوّج من تسعمائة امرأة !

فهل إذا قيل لك إن فلاناً العالم ذبح في حياته تسمئة شاة أفلا يكون ذلك اسرافاً مبيناً . ذلك عالم ليس له إلا ما يقيم أوده مما يوظف لأمثاله من بيت مال المسلمين ، فكم من النساء يمسك الغنى إذا نزل تلك السوق الراكدة ومعه ماله وجاهه

وفي هذه السوق قُضى على المطلقات قضاء لامرد له ، فلا يطلب المطلقة طالب ولا تلمحها نفس راغب . وقد كان من سنة العرب حتى آخر العهد الأموى ، أن المرأة يخلفها بعد زوجها زوج ومن بعده أزواج ، فلا يتضع لها قدر ، ولا تطمئن لها عزة ، وربما كان آخر أزواجها أسنى شرفاً وأدنى الى قلوب النساء من أولهم لأن المرأة انما تخطب لسناء شرفها ، وعلو بيتها ، ونبل خلاها ، وذلك ما لم ينقصه الطلاق شيئاً . أما الآن وقد شغل الناس بلذات الشباب ، واستمرأوا مرعى الجوارى فأقل ما يطلب أبكار العرب بِلَّةً ثِيْبَهْن . والى تلك الحال أشار الجاحظ في كتاب القيان اشارة الأسف المحزون ، وان من أوضح ما يكشف عن رأى الرجل فى المرأة ، ومنزلتها من نفسه ، وحالها فى بيته قول القائل :

اذهي قد قضيت منك قضائى وإذا شئت أن تبينى فينى

ولعل أبلغ فى الإنباء بحالها ، وتجنى الرجل عليها قول أبى الشيص :

إذا لم تكن طرق الهوى لى ذليلة تنكبتها وانحزت للجانب السهل
ومالى أرضى منه بالجور فى الهوى ولى مثله ألف وليس له مثلى

ثم انظر الى المجاهرة بالغدر ، والمجابهة بمكنون النفس ، والمظاهرة بدخيلة الرأى فى قول القائل :

يارُب مثلك فى النساء كثيرة يضاء قد تمتعها بطلاق
لم تدر ما تحت الضلوع وغرها منى تجمل شيمتى وخلاقى

وأعقب ذلك الكساد التفريط في حقوق المرأة . ومن ذا الذي يضن بالرخيص المبذول ، أو يصون البغيض المملول ؟ ومن التفريط تركها في غياهب الجهل وطرحها في مطارح الإهمال ، فلا تزويد بعلم ، ولا تجميل بأدب ، ولا تنشئة على دين واثقضى بانقضاء القرن الثالث للهجرة عهد المرأة العربية الكاتبة والشاعرة والعالمة والخطيبة ، وقالوا تَعَلَّه لَذلك : ان الذي يُعَلِّم المرأة كمن يصقل السيف ليُقتل به ، وقالوا : لا تسق السهم سماً لترميك به يوماً ما ، وقالوا : اذا وصفت المرأة بالعقل فهي غير بعيدة من الجهل ، وقالوا : لا تدع المرأة تضرب صَباً فإنه أعقل منها . وأمثال ذلك ونظائره كثير

ومن التفريط في المرأة ترك الحفاظ لها ، والغيرة عليها . ولا أقول ان ذلك كان سَنَنًا عامًّا لأهل العراق . ولكنه مما فشا فيهم . وذاع في أشعارهم وأخبارهم . وأثر عن ساقطتهم وعامتهم . وليس بسر ما وضعه أهل هذا البلد من الكنايات وما أرسلوه من النوادر . وما أذاعوه من الشعر عن المفرطين في أعراضهم ، المغضين عن شرف حلائلهم مما استفاضت به الكتب ، وتظاهرت عليه الأخبار

اباحة المتعة والزواج الموقوت

المتعة عقد بين الرجل والمرأة صيغته أن يقول الرجل أتمتع أو أستمتع بك ، أو ما اليهما مما اشتق من هذا اللفظ ، فتجيبه المرأة بالقبول ولا تلزمه الشهود والزواج الموقت صيغة كصيغة الزواج العامة إلا أنه موقوف بوقت ، وقد أحلها الإسلام معاً باسم المتعة في السنة الأولى من الهجرة ، ثم حرمها الرسول على الله عليه وسلم في حجة الوداع . على أن المسلمين ما برحوا يتمتعون طوال عهد أبي بكر وصدر من عهد عمر لأن منهم من لم يصله حديث المنع حتى أخذهم عمر بمنعه

وحسّر لهم عن حجة تحريره فكفوا عنه، وأقاموا بعدها لا يبيحون المتعة إلا فريقياً من الشيعة أباحوها معتمدين على فتوى نسبت إلى عليّ عليه السلام، وأخرى قال بها ابن عباس رضي الله عنهما. وما زال جمهور المسلمين يتحامون هذا الأسلوب من الزواج حتى أباحها المأمون للمسلمين عامة، وظاهر غرضه الانحياز إلى عليّ وابن عباس لأنه كان يؤيّل الشيعة رأيه وينحهم قياده، أما حقيقته على ما أرى فعلاج ذلك الكساد الذي ينذر الأمة بالوبال العاجل والموت المحيق، على أنه لم يحسم داء ولم يدفع بلاء. لذلك حرمه على الناس اعتداداً بحديث صدع به قاضيه يحيى بن اكرم

آثام الظنون

استنشى الناس في العهد العباسي نشوة الحضارة وابتلّوا سكرة النعيم وسارت المرأة في أثر الرجل ناهضة بدلوه مسيمة أفياء سرخته، والمرأة ذات حسّ وثاب، تدفعها إلى الكمال فتسير إلى أبعد حدوده وتقذف بها إلى النقص فتتردى إلى أعمق وهاده، فلما أفاق الرجل وأبصر المرأة مرخاة العنان لا يردّها زجر ولا يلويها تخرج أنشأ يلتدم حزناً ويستشرى غضباً كان لم تكن له في ذلك الخطب يد أيّدة ولا جهد عميق، على أن مما يملك الرجل التعليل والتأويل، فهو إذا ضلّ راح يلتمس المعاذير لهذا الضلال — وربما موّه الرأي فاذا الضلال هدى وإذا الشطط قصد مبين، لذلك راح يعزوما تورطت فيه المرأة إلى سوء فطرتها ولؤم غريزتها وقبح دخيلتها وأنها أشرى الشر وأسوأ سوء، وزور الرجال أحاديث نخلوها رسول الله وفيها أن المرأة قرارة اللؤم ودارته ومنبت الشر ونبعته، كان لم يكن منها أمه ولا زوجه ولا ابنته التي عدها عديل نفسه، وادخر الله منها سلالة نبيه، ونسبوا إلى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالصائد الخاتل والحية الرقشاء؟! وما زوروه من الحديث: أوثق سلاح إبليس النساء — النساء حبايل الشيطان — شاوروهن وخالفوهن — اياك

ومشاورة النساء فإن رأين إلى أفن وعزمين إلى وهن — النساء شر كله وشر ما فيهن كله الاستغناء عنهن . ومما نحلوه صحابة رسول الله دعواهم أن علياً عليه السلام قال « لا تطيعوا النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن يدبرن العيال ، فانهن ان تركن وما يردن أو ردن المبالك وأزلن الممالك ، لا دين لهن عند لذاتهن ، ولا عقل لهن عند شهواتهن ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهاقن في البهتان ويتمادين في الطغيان ويتصدن للشيطان » وقولهم على لسان سلمان رضى الله عنه : النساء عى وعورة ، فداووا العى بالسكوت ، والعورة بالبيوت . وزعموا أن من الأقدمين من قال لا تدع المرأة تضرب صبيها فانه أعقل منها . ومنهم من قال اذا وصفت المرأة بالعقل فهي غير بعيدة من الجهل . وأن سقراط رأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار تحمل ناراً والحامل شر من المحمول . وقيل له أى السباع شر ؟ فقال المرأة

كل ذلك وأمثاله لم تقلبه الألسنة إلا فى العهد العباسى ، وقد ظهر اختيان المرأة فى أحط مظاهره على ألسنة الشعراء ، ومن أشنع ما قيل فى ذلك العهد

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن	جزوعاً اذا بانـت ، فسوف تبين
وان هى أعطتك اللبان فانها	لغيرك من خلانها ستلين
وخنها وان كانت تفى لك انها	على مدد الأيام سوف تحون
وان حلفت لا ينقض النأى عهدا	فليس لمخضوب البنان يمين

ثم ما زال الشعراء يتداركون على ذلك السنن الوعر من هجر الكلام ومثله حتى جاء أبو العلاء فاتهم المرأة فى ذمتها وأمتها ودينها وخلقها ! ولم يدع لها لحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر ، وهو فى ذلك لم يعد ما يقوله أهل هذا العصر فى المرأة ، ونحن هنا نلم بشئ مما قال فى هذا السبيل . قال

وأظهر من ضوارب في نعيم نعمام في الفلا متهبرات^(١)
تقيّد لفظها عن كل بر مواش بالخلّي مقيدات
عجلن الى مساء مستجير لواه في الخطا متأبرات
وتنقص خيرها أثراً وفكاً صواحب منطق متزيدات
وسبّح بالضحي ظبيّات مرّد بكل عظيمة متمرّيات^(٢)
وقد أنعمدن في أزر ولكن سيوف لحاظهن مجردات
وورّدت اللباس بلون صبغ خدود بالشباب موردات

وقال :

قد أهملت للخياط ابرتها فصادت ابرة لعقربها
فهي تُسقى الحليب ليلتها ولم يكن من لذيد مشربها

الحجاب

وكان لازماً بعد أن أوحشت عقيدة الرجل في المرأة أن يقصصها عن منال العيون ويحجبها عن محال المآثم، فما لبث أن أرخى عليها الحجب وأسدل دونها الأستار وعنى على كل أثر ينبي عنها أو يشمر بوجودها، وراح يتأول فيما أباح الدين رؤيته منها، وأكثر من فعل ذلك المتأخرون من فقهاء الحنفية، وأنت تعلم أن الاسلام أباح للرجل أن يطلع على وجه المرأة وكفيها وقدميها. فانظر كيف تأولوا في ذلك! أما الوجه فقد قال صاحب « الدر » « وتُمنع - المرأة - من كشف الوجه بين الرجال لخوف الفتنة » وأما الكف فقد قالوا: إن ظهره عورة، كما قالوا: أن باطن القدمين عورة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الحجاب، بل إنهم تأولوا كذلك في صوتها فقالوا: إن نعمتها - حتى في قراءة القرآن الكريم - عورة. وزاد صاحب

الكافي فقال : لا يجوز للمرأة أن تلبى جهرة لأن صوتها عورة ، بل لقد تجاوز صاحب الفتوح كل ذلك إلى الفتوى بفساد صلاة المرأة لو جهرت بالقراءة

كل ذلك مما تأوله فقهاء القرن الخامس وما يليه — باسم الدين — درءاً للفتنة الناشئة وحسماً للداء الويل . وما عسى أن يفعل هؤلاء وقد طغى الفساد على المشاعر الفاضلة فلا يُعرف من المرأة إلا أنها ذريعة إلى مآرب فاسد وسبيل إلى مطمح وخيم ولقد أغرق الناس في حجاب المرأة حتى عيب عليهم أن يذكروا اسمها ، وبعد أن كان معاوية يتحدث عن نفسه في مجلس خلافته فيبدأ حديثه بقوله «أنا ابن هند» وبعد أن جاء شاعر بني أمية بمدح فحل أجمعهم عبد الملك بن مروان بقوله أنت ابن عائشة التي فضلت أروم نساءها

بعد كل هذا وأشباهه أصبح اسم المرأة عورة يعاب ذكره وتُلمَس وجوه الكناية عنه ، حتى لقد أراد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي أن يرثى خولة بنت حمدان أخت سيف الدولة فسمّاها « فَعْلَة » ، وهذا قوله :

كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمَلَّأْ مَوَاكِهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَحْلَعْ وَلَمْ تَهَبْ

هذا والمتنبي شاعر نشأ بين الأعراب وسار في مساقمهم ورغم ذلك لم يشأ أن يصرح باسم مرثيته وذكر عنها تلك الكناية الغريبة

فانظر إلى هذا النوع من الحجاب كيف ألجأ الشاعر العظيم إلى تلك الكناية الفاسدة ، وأخرجه ذلك المخرج المريب ؟ ولقد أراد ذلك الشاعر أن يصف ذلك الحجاب في رثائه والده سيف الدولة فدعاه دفناً ! وذلك قوله

صَلَاةَ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنُوطَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ

عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ الْمَوْتِ صَوْنًا وَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي شَرَفِ الْخِلَالِ

وأصبح أولئك الشعراء يعدون الاغراق في الحجاب فضلاً ومحمدة حتى للبنات
الصغيرات ! وانظر الى الشريف الرضى كيف أراد أن يرثى صغيرة من هؤلاء فقال
يا أرض ما الدّرء في شخص عصفت به بين الأقارب والعواد والخول
أردت أن تحجب البيداء طلعته ألم يكن قبل محجوباً عن المقل ؟
إذا فقد كتب على المرأة الشريفة في هذا العهد أن تؤد في الحجاب وتظل فيه
حتى تموت

ومن بعد القرن الخامس غابت المرأة العراقية في الخفاء حتى عن التاريخ ، فأصبح
لا يهتم بها ولا يذكرها بخير ولا شر

محنة المرأة

في فتنه القرامطة

فرقة الاباحية

القرامطة فريق من غلاة الباطنية ، ول هؤلاء الباطنية حديث طويل يجب أن
نجمله إجمالاً ثم نأخذ فيما قصدنا له

لقد ظهر مذهب الباطنية في القرن الثالث ، والدعاة اليه قوم من أهل فارس
أرادوا أن يوهنوا العرب في دينهم كما أوهنهم في قوميتهم ، ول هؤلاء القوم في دعوتهم
حذق ورفق فلم يهاجموا الاسلام طعنًا وتجريحاً كما كان يفعل دعاة الأديان حين
يدعون المسلمين الى اديانهم ، بل ظهروا للناس مسلمين لا يعدلون عن الاسلام الى
سواه ، ثم تأولوا كل حقيقة من حقائقه وكل شعيرة من شعائره ، فتأولوا الملائكة
والعرش واللوح المحفوظ والبعث والجنة والنار الى معان بعيدة لا ظواهر لها ، حتى
ذات الخالق جل وعز تأولوها الى قوى الطبيعة ، وتأولوا كذلك الصلاة والصيام

والحج الى ما ليس من شأنها ، وذهبوا يتصلون بنفوس العامة اتصالاً بارعاً دقيقاً . فهم يأتون السنى من غير الناحية التى يأتون منها المعتزلى ، ويخاطبون المتصوف من غير هاتين الناحيتين ، ويديحون للغواة صنوف اللذات ، وجعلوا من حق المرء أن يتزوج أخته وابنته كما يفعل المجوس ، وفى ذلك يقول أحد دعاةهم : « وما العجب من شئ كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسننها فيحرمها على نفسه ويُسكحها من أجنبي ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه احق بأخته وبنته من الأجنبي »

ويرى هؤلاء أن الأنبياء قوم أظهرتهم مواهبهم ونفاذ عقولهم وقوة تأثيرهم فى نفوس الناس

والقرامطة فريق من غلاة الباطنية ، وهم يدينون بالقتل والتدمير واخافة السبيل أكثر مما يدينون برأى أو ينزعون عن عقيدة ، وكثيراً ما كانوا يُغيرون على الحجيج فى طريقه الى مكة أو فى طوافه أو عند افاضته فيقتلون الرجال ويذبحون الأطفال ويستحيون من راق فى أعينهم من النساء

وزعيم هؤلاء أحمد بن قمرط ، كان من صابئة حرّان ، ثم قدم الكوفة فاجتذب اليه عامتها وأحل لهم الموبقات وخاض بهم الخبائث وقطع بهم السبيل واجتمع اليه خلق كثير ؛ وخلف من بعده خلف كان أشد منه فتكاً وأنكى طريقة ، وقد حدثوا عن الحسين بن زكرويه القرمطى أنه ربما أغار على المدينة فقتل رجالها ونساءها وأطفالها وماشيتها وخرج وليس بها عين تطرف

وكانوا يديحون للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال

ومما حدث الطبرى عن أبى الحسن المتطبب ببغداد قال : جاءتني امرأة بعد غلبة المكتفى بالله على صاحب الشامة — من زعماء القرامطة — فقالت لى : إني

أريد أن تعالج شيئاً في كتفي، قلت وما هو؟ قالت جرح، قلت أنا كحال وهبنا امرأة
تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظري محيئاً، فقعدت ورأيتها مكروبة كثيبة
باكية فسألتها عن حالها وقلت ما سبب جراحك، قالت! قصتي تطول. قلت حدثيني
بها واصدقيني، وقد خلا من كان عندي فقالت: كان لي ابن غاب عني وطالت غيبته
وخلف على أخوات له فضقت واحتجت واشتقت إليه، وكان شَخَص إلى ناحية
الرَّقَّة فخرجت إلى الموصل وإلى الرقة كل ذلك أطلبه وأسأل عنه فلم أَدَل عليه
فخرجت عن الرقة في طلبه فوقعت في عسكر القرمطي فجعلت أطوف وأطلبه
فينأ أنا كذلك إذ رأيته فتعلقت به فقلت ابني! فقال أمي؟ فقلت نعم! قال ما فعل
أخواتي! قلت بخير، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق فضى بي إلى منزله وجلس
بين يدي وجعل يسألني عن أخبارنا فخبرته ثم قال دعيني من هذا واخبريني ما دينك؟
فقلت يا بني أما تعرفني؟! فقال وكيف لا أعرفك، فقلت ولم تسألني عن ديني
وأنت تعرفني وتعرف ديني. فقال كل ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه الآن
فأعظمت ذلك وعجبت منه، فلما رآني كذلك خرج وتركني، ثم وجه إلى بخبز ولحم
وما يصلحني وقال اطبخيه، فتركته ولم أمسّه ثم عاد فطبخه وأصلح أمر منزله فدق
الباب داق فخرج إليه فاذا رجل يسأله ويقول له: هذه القادمة عليه تحسن أن
تصلح من أمر النساء شيئاً؟ فسألني فقلت نعم، قال امضي معي، فضيت فأدخلني
داراً، وإذا امرأة تطلق فقعدت بين يديها وجعلت أكلها فلا تكلمني، فقال لي الرجل
الذي جاء بي إليها ما عليك من كلامها، أصلحني أمر هذه ودعي كلامها، فأقمت حتى
ولدت غلاماً وأصلحت من شأنها وجعلت أكلها وأتلف بها وأقول لها يا هذه
لا تحتشميني فقد وجب حق عليك، أخبريني خبرك وقصتك ومن والد هذا الصبي؟
فقالت تسأليني عن أبيه لتطالبه بشيء يهبه لك؟ فقلت لا، ولكن أحب أن أعلم

خبرك . فقالت : إني امرأة هاشمية — ورفعت رأسها فرأيت أحسن الناس وجهاً — وإن هؤلاء القوم أتونا فذبجوا أبى وأمى وإخوتى وأهلى جميعاً ، ثم أخذنى رئيسهم فأقت عنده خمسة أيام ، ثم أخرجنى فدفعنى إلى أصحابه فقال طهروها ، فأرادوا قتلى فبكيت ، وكان بين يديه رجل من قواده فقال هبى لى ، فقال خذها فأخذنى ، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه فسلوا سيوفهم وقالوا لا نساها اليك ، إما أن تدفعها إلينا وإلا قتلناها ، وأرادوا قتلى وضجوا فدعاهم رئيسهم القرمطى وسألهم عن خبرهم فخبروه فقال تكون لكم أربعتكم ، فأخذونى ، فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدرى ممن هو هذا الولد منهم

قالت فجاء بعد المساء رجل فقال له هنيه فهنأته بالمولود فأعطانى سبيكة فضة وجاء آخر وآخر أهنيء كل واحد منهم فيعطينى سبيكة فضة ، فلما كان فى السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع وعليه ثياب خز تفوح منه رائحة المسك فقالت له هنيه ! فقامت إليه فقلت يّض الله وجهك والحمد لله الذى رزقك هذا الابن ودعوت له فأعطانى سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل فى بيت وبت مع المرأة فى بيت ، فلما أصبحت قلت للمرأة يا هذه قد وجب عليك حق ، فإله الله فى ، خلصينى قالت م أخلصك ؟ فخبرتها خبر ابنى وقلت لها إنى جئت راغبة إليه ، وانه قال لى كيت وكيت ، وليس فى يدي منه شىء ، ولى بنات ضعاف خلفهن بأسوأ حال ، خلصينى من ههنا لأصل الى بناتى . فقالت عليك بالرجل الذى جاء آخر القوم فسله ذلك فانه يخلصك ، فأقت يومى الى أن أمسيت ، فلما انصرف تقدمت إليه وقبلت يده ورجله وقلت يا سيدى قد وجب حق عليك ، وقد أغنائى الله على يديك بما أعطيتنى . ولى بنات ضعاف فقراء ، فان أذنت لى أن أمضى فأجيئك يبناتى حتى يخدمك ويكون بين يديك ! فقال وتفعلين ؟ قلت نعم ! فدعا قوماً من غلماناه فقال امضوا

معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ثم اتركوها وارجعوا ، فحملوني على دابة ومضوا
بي ، قالت فينما نحن نسير واذا أنا بابني يركض وقد كنا سرنا عشرة فراسخ فيما
خبرني به القوم الذين معي ، فلحقني وقال يا فاعلة ! زعمت أنك تمضين وتجيئين
بيناتك ؟ ! وسل سيفه ليضربني فمنعه القوم فلحقني طرف السيف فوقع في كتفي ،
وسل القوم سيوفهم فأرادوه فتنحى عني وساروا بي حتى بلغوا بي الموضع الذي سماه
لهم صاحبهم فتركوني وقدمت

فالقرامطة اذا قوم يجذبوب قلوب الفتيان والفتيات بما يزينون لهم من ضروب
الملذات ومقارفة المآثم ، وكانت سطوتهم مصبوبة على البيت الحرام ومن يلوذون به
لأنه مثابة المسامين ومعقد ألفتهم ومناط وحدتهم ومجتمع كلمتهم . وقد أحرقوا
أستار الكعبة وكسروا الحجر الأسود وملأوا زمزم بأجساد القتلى وذبحوا من الحجاج
من لا يحصيهم الا الله ، كل ذلك لينتقموا من الاسلام بالخسف والعسف ما لم يُمكن
الباطنيون من قعه بالرفق والحيلة

وقد أقامت هذه الفرقة المنيحة المبيحة أمد القرن الرابع ثم تآزر عليهم المسلمون
فأبادوهم جميعاً

الحياة الفكرية للرأة في العراق

تنقلت المرأة العربية العراقية في دورين متباينين :

أما الأول فداه مائتا عام ، وربما أربى على ذلك قليلاً . وفي ذلك العهد لم تقصر عن اللحاق بالرجل في بعض نواحي العلم والفن وان لم يؤثر لها فيهما شيء كثير . وقد أسلفت لك شيئاً مما ذاع من دور الخلافة من شعر النساء وغناء النساء ، وما أثر عن نساء العلويين من دراسة علوم الدين ، وكذلك ظهر من النساء من تعلمن الطب ودرسن الفلسفة ، ومن هؤلاء من جاذبن الملحنين أسباب الزنج والاحقاد وجهرن بذلك كله ، وقد تحدث الطبري عن نساء أقررن بالزندقة بين يدي المهدي حين سلط سيفه على الزنادقة . ومن أقربها هنالك فاطمة بنت يعقوب ابن الفضل وخديجة امرأته وهما من بيت المهدي ولحمته . وظهر كذلك من درسن كتبها وأقررن بها بين يدي المأمون . ولعل هذا الدور الأول من العهد العباسي أول عهد للناس ظهرت فيه المرأة قاضية تحكم بين الناس باسم الخليفة أمير المؤمنين ، وكان ذلك في عهد الخليفة المقتدر ، وكان مرجع الأمر حينذاك الى امرأتين : السيدة والدة المقتدر وأم موسى القهرمانه ، وكان لهما الرأي الأعلى فيما دق وجل من أمر الخلافة وشئون الحكم ، وقد عرض للسيدة أم المقتدر أن ترّوض النساء على القضاء فاختارت قهرمانه لها تدعى « مثل » وأمرتها أن تجلس بالرفافة للمظالم وتظر في كتب الناس يوماً في كل أسبوع - قال الصابي : فلما رأى الناس ذلك أنكروه واستبشعوه وكثر عيهم له والطعن فيه ، وجلست أول يوم فلم يكن لها فيه طائل ، ثم جلست في اليوم الثاني وأحضرت القاضي أبا الحسن فحسن أمرها وأصلح عليها

وخرجت التوقيعات على سداد فاتفع بذلك المظلومون وسكن الناس الى ما كانوا قد تفروا منه من صدارتها للقضاء ونظرها في المظالم

لم يكن إذاً ذلك العهد من حياة المرأة عهد جهالة فاشية ولا تفكير مضطرب ولكنه كان عهد اضطراب في الخلق والتيار في السير وانحراف عن قصد السبيل وخروج عن سنة المرأة وواجبها الذي ناطه الله بها ووكلها به . ومن خلق الرجل أن يندفع في لهوه ما شاء أن يندفع ، فاذا تأثرت المرأة به — وحق لها أن تتأثر — لها عنها حتى يفيق ، فان أفاق وكان هناك سبيل الى ردها عن غايتها دفعها بكلتا يديه وحملها وحدها عاقبة ما آل اليه أمره وأمرها من شر ووبال ، ثم لا يزال يسلب منها كل يوم حقاً ويحملها كل آن مغرماً حتى تصبح هملاً من الأهمال ، أما اذا طال الأمد على اندفاعها وطال إغضاء الرجل عنها حتى يسترخى عنانها وتستحيل طبيعتها ويصلب على تلك الحال عودها فان من أعسر الأمور أن يغلبها الرجل على أمرها ويردها عن غايتها . ومهما بدا من الرجل والمرأة من ضروب الرفق والود والمحاسنة والملاينة فان بينهما صراعاً قد لا يُحسّنه ولا يأبهان به ، وغايته انتزاع كليهما ما شاء من حق صاحبه . ولقد ينزل أحدهما لصاحبه عن بعض حقه أو كله تجملاً وتفضلاً ، فاذا أراد أن يسترده يوماً لا يجد السبيل اليه ، ثم ينتهي هذا التجميل والتفضل الى استرخاء واستخذاء وتسليم واستسلام ، وقل من الفريقين من يرضى ببعض الغلبة على غريمه ، بل لا يزال يقلم منه كل يوم ظفراً ويطوقه طوقاً حتى يجعل حياته لغواً ووجوده عدماً ويعد ذلك بعض حقه الذي لا يُدفع عنه أو ينازع فيه

ونعود الى المرأة العراقية في الدولة العباسية فنقول : إنها تنكبت الطريق وجاوزت النهج ولكن الرجل لم يمهلها حتى يكون خروجها طبعاً مألوفاً ودستوراً نافذاً وشريعة موضوعة بل عاجلها دون الغاية وردها قبل القرار ، ولا يكفي قرن

وبعض قرن ليكون للمرأة من مُحَدَّثات الحقوق ما لا سبيل الى تغييره والعبث به فلم يجد عناء في سلبها كل ما انتزعت من حق غير مشروع ، ثم لم يقف عند هذا الحد من الغلب ، بل زادها عن حقها الذي سوَّغَه الله لها فحرَّم تعليمها ، وحرَّم على نفسه العناية بأمرها ، وأبعدها عن منال العيون والألسنة ، ولم يعد يذكرها إلا بالسوء ولا ينالها إلا بالشر ، وتلك حال المندفع اذا رُدَّ ، والمتغلب اذا قُهر .

وكان من أثر ذلك كله انحطاط تفكيرها وشيوع أميتها ، فلم نعد نسمع في العراق بالكاتبة ولا الشاعرة ولا المتأدبة ولا المتفكِّهة إلا ما يشبه الشجرة الناجمة في الصحراء المقفرة ، وأصبح نسك المتنسكات خَرَفًا وشعوذة ، وأصبحت الأسوة بهن جهلاً وحماقة ، وشاع ذلك الضرب من النسك حتى رُفِعَت القباب في كل إقليم وفي كل مدينة وفي كل قرية وكل دسكرة على أمثال هؤلاء ، وكان شيوع ذلك من الفتن التي أصابت الايمان المتين في صدور المؤمنين .

المرأة البدوية

أقام أهل بادية العراق على ما كانوا عليه من طبع وخلق وعادة وأدب ، فلم يغير نظام الدولة شيئاً من نظام الجماعة ولا أسلوب الحياة ، ومن أجل ذلك بقيت المرأة الأعرابية على صفاء فطرتها وسناء رأيها وقوة نفسها ونصاعة أدبها ، وكان علماء الأدب ورواة الشعر يذهبون الى البادية فيستمعون مآثور الكلام من الرجال والنساء ثم يعودون فيطربون به الخلفاء ويتناقلون به العلماء ويتحدثون به في مجالس العلم وفي حلقات الدروس ؛ وربما جدَّ الخلاف بين أئمة النحوفلا يطمئن لهم رأى حتى يأتوا بأعرابي من البادية فيحكمون اليه ، لأنه لا يسبغ الخطأ ولا ينطق به ؛ وبقيت البادية مباءة للصحيح من اللغة والفصيح من الأسلوب أمداً طويلاً . واذا

كانت المرأة الأعرابية قد فقدت في أخريات هذا العهد يانها العذب وأسلوبها
البديع فلما أصاب الأعراب من التمزيق والشتات وما شملهم من الدعة والسكون،
فلا مجامع تعقد ولا أسواق تقام ولا حروب تشب ولا غارات تثار، وقد كان لهم
من هذه وتلك مجالات فسّاح يأتون فيها بالقصائد المفاضة، والأمثال المرسلة،
والحكم الجامعة، والخطب الطوال.

مأثور من أدب النساء

١ - قالت عُلَيَّة بنت المهدي - وهو مما يتغنى به :

مالي أرى الأبصار بي جافيه لم تلتفت مني إلى ناحية
لا ينظرُ الناس إلى المبتلى وإنما الناس مع العافية
صحي سلوا ربكم العافية فقد دهنتي بعدكم داهية
صارمَتي من بعدكم سيدي فالعين من هجرانه باكية

٢ - خرج المهدي يتنزه بعيسى باذ، وقَدِمَ هنالك النُصَيْب ومعه ابنته حَجَناء
فدخل على المهدي وهي معه ، فأَنشدته قولها فيه :

رُبَّ عيش ولذة ونعيم وبهاء بِمُشْرِقِ المِيدانِ
بسط الله فيه أبهى بساط من بهار وزاهر الحوذان
ثم من ناضر من العُشْبِ الأَخضر تزهى شقائق النعمان
مدد الله بالتحاسين حتى قصُرت دون طوله العِنان
حفلت حافتان حيث تناهى بخيام في العين كالظلمان^(١)
زينوا وسطها بطارمة مثل الثريا يحفها النسران

(١) الظلمان : جمع ظلم - ذكر النعام

ثم حَشَوْ الحِيَامَ يَبِضْ كَأَمْثَا لَ المَهَا فِي صَرَائِمِ الكَثْبَانِ
يَتَجَارِنَ فِي غَنَاءِ شَجِيَّ «أَسْعَدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانَ»
فَبَقِصِرَ السَّلَامُ مِنْ سَلَامِ اللَّهِ وَأَبْقَى ، خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ
وَلَدِيهِ الْغَزْلَانِ بَلْ هُنَّ أَبْهَى عِنْدَهُ مِنْ شَوَارِدِ الْغَزْلَانِ
يَا لَهُ مِنْظَرًا وَيَوْمَ سُرُورٍ شَهِدْتَ لَذِيهِ كُلَّ حَصَانٍ
فَأَمَرَهَا الْمَهْدَى بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ .

٣ — حَدَّثَ الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ امْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ تَخَاصُمُ زَوْجَهَا وَهِيَ تَقُولُ :
وَاللَّهِ إِنْ شَرِبَكَ لَأَشْتَفَا^(١) ، وَإِنْ ضَجَعْتَكَ لَأَنْعِجَا^(٢) وَإِنْ شِمِلْتِكَ لَأَتَفَا^(٣)
وَإِنَّكَ لَتَشْبَعُ لَيْلَةً تُضَافَ ، وَتَنَامُ لَيْلَةً تَخَافُ . فَقَالَ لَهَا : وَاللَّهِ إِنْكَ لَكُرُوءَا^(٤)
السَّاقِينَ ، قَعُوءَا^(٥) الْفَخْذَيْنِ ، مَقَاءَا^(٦) الرَّفْعَيْنِ ، مَفَاضَةً^(٧) الْكَشْحَيْنِ ، ضَيْفَكَ جَائِعٍ ،
وَشَرْكَ شَائِعٍ .

٤ — لَمَّا قُتِلَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ دَخَلَ الْمَأْمُونُ عَلَى أُمِّهِ فَوَجَدَهَا تَبْكِي فَقَالَ لَهَا :
أَنَا ابْنُكَ مَكَانَهُ ، فَقَالَتْ إِنْ أَبْنَا تَرَكْتُ لِي أَبْنَا مِثْلَكَ لَجْدِيرٍ أَنْ يُبْكِي عَلَيْهِ

٥ — لَمَّا أُرْسِلَ الْأَمِينُ عَلَى بَنِ عَيْسَى إِلَى خِرَاسَانَ لِقِتَالِ الْمَأْمُونِ حَضَرَ إِلَى
بَابِ زَيْدَةَ لِيُودِعَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا عَلِيُّ ! إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ وَلَدِي وَإِلَيْهِ أَتَيْتُ
شَفَقْتِي فَأَنِي عَلَى عَبْدِ اللَّهِ — الْمَأْمُونِ — مَنَعُطْفَةٌ مَشْفُوقَةٌ لَمَّا يَحْدُثُ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرُوهٍ
وَأَذَى ، وَإِنَّمَا وَلَدِي مَلِكٌ نَافِسٌ أَخَاهُ فِي سُلْطَانِهِ ، فَأَعْرِفْ لِعَبْدِ اللَّهِ حَقَّ وَلَادَتِهِ
وَأَخَوْتِهِ ، وَلَا تَجْهَبْهُ بِالْكَلَامِ فَإِنَّكَ لَسْتَ نَظِيرًا لَهُ ، وَلَا تَقْتَسِرْهُ اقْتِسَارَ الْعَبِيدِ ،

(١) الاشتفاف : شرب ما في الأناء كله فلا بقي منه على بقية (٢) الانعجاف : الانصراف تصفه بشدة
الوخم (٣) الشمة : الاشتغال على الزداء والالتفاف بالرداء ومسكة (٤) الكرواء : الدقيقة
الساقين (٥) القعواء : المتباعدة ما بين الفخذين (٦) المقاء : الدقيقة الفخذين (٧) المفاضة : المسترخية
والكشحان : الحاصرتان

ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تمنع عليه في السير ، ولا تُساوِه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وإذا شتمك فاحتمل منه .

٦ — قال الأصمعي : دَفَعْتُ في بعض تطوافي الى امرأة من ولد ابن هرمة^(١) فسألتها القرى ، فقالت : إني والله مُرْمِلةٌ مُسْنِتَةٌ ما عندي شيء ، فقلت أما عندك جزور؟ فقالت والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت أما ابن هرمة أبوك؟ فقالت : بلى والله ، إني لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أُمْتِغُ العُوذَ بالفصال ولا أبتاع إلا قرية الأجل^(٢)
إني إذا ما البخيل آمنها باتت ضموراً مني على وجل
ووليت فنادت : اربع أيها الراكب ، فعله والله ذلك أقله عندنا^(٣) ، فقلت إلا تكوني أوسعتنا قرى فقد أوسعتنا جواباً

٧ — حديث غريبان النوى .

حدث ابن السراج قال : أخبرني بعض الاخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لمةً نجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام في المنازل ، فقال بعضنا : لو عزمتم نخرجنا الى بعض البساتين ! نخرجنا الى بستان قريب منا ، فيينا نحن فيه إذ سمعت ضجة راعتنا ، فقلت للبستاني : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لهن قصة فقلت له أنا دون أصحابي : وما هي ؟ قال العيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابي أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فهضت وحدي

(١) أحد الشراء الاجواد الفرسان (٢) العوذ من النياق الحديثات التاج يقول أنه لا يقيم حتى يعظم فصليها وكلا شطري البيت كناية عن تكرمه بذبح الابل فلا يبتى منها على شيء (٣) تقول هذا التكرم أقل ما عندنا من الطعام

فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأراهن ولا يرينني ، فرأيت نسوة أربعاً
كأحسن ما يكون من النساء وأشكهن ، ومعهن خدام لهن وأشياء قد أصلحت
من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزاء
من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن
أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم
أخرجن صورة معهن في ثوب ديبق فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم
أخذن في النوح فقالت الأولى :

خَلَسَ الزَّمَانُ أَغْزَ مَحْتَلَسَ	وَيَدُ الزَّمَانِ كَثِيرَةُ الْخُلَسِ
لِلَّهِ هَالِكَةٌ فُجِعَتْ بِهَا	مَا كَانَ أَبْعَدُهَا مِنَ الدُّنَسِ
أَنْتَ الْبَشَارَةُ وَالنَّعَى بِهَا	يَا قَرَبَ مَاتَهَا مِنَ الْعُرْسِ

ثم قالت الثانية :

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِأَنْسِ نَفْسِي عَنَوَةً	وَبَقِيْتُ فَرْدًا لَيْسَ لِي مِنْ مَوْئِسِ
أَوْدَى بِمُلْكٍ وَلَوْ تُفَادَى نَفْسُهَا	لِفَدِيَّتِهَا يَمِّنُ أَغْزُ بِأَنْفُسِ
ظَلَّتْ تَكَلِّمُنِي كَلَامًا مُطْمَعًا	لَمْ أُسْتَرْبِ فِيهِ بِشَيْءٍ مَوْئِسِ
حَتَّى إِذَا فَرَّ اللِّسَانُ وَأَصْبَحَتْ	لِلْمَوْتِ قَدْ ذَلَّتْ ذُبُولُ التَّرْجِسِ
وَتَسَهَّلَتْ مِنْهَا مُحَاسِنُ وَجْهِهَا	وَعَلَا الْأُنَيْنُ تَحْتَهُ بِتَنْفُسِ
جَعَلَ الرَّجَاءُ مَطَامِعِي يَأْسًا كَمَا	قَطَعَ الرَّجَاءُ صَحِيفَةَ الْمُتَلَمَسِ

ثم قالت الثالثة :

جَرَتْ عَلَى عَهْدِهَا اللَّيَالِي	وَأُحْدِثَتْ بَعْدَهَا أُمُورُ
فَاعْتَضَتْ بِالْيَأْسِ مِنْكَ صَبْرًا	فَاعْتَدَلَ الْيَأْسُ وَالسَّرُورُ
فَلَسْتُ أَرْجُو وَلَسْتُ أَخْشَى	مَا أُحْدِثْتُ بَعْدَكَ الدَّهْورُ
فَلْيُبلغِ الدَّهْرُ فِي مَسَاتِي	فَمَا عَسَى جَهْدُهُ يَضِيرُ

ثم قالت الرابعة :

خَدَنْ نَفِيسَ مِنَ الدُّنْيَا فَجَعْتُ بِهِ
وَيَحْ الْمُنَايَا أَمَا تَنْفَكُ أَسْهَمَهَا
يَلِي الْجَدِيدَانَ وَالْأَيَّامَ بِالِيَّةِ
ثُمَّ قَنَّ فَقَلَنْ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ :

كُنَّا مِنَ الْمُسَاعَدَةِ
فَمَاتَ نَصْفُ نَفْسِي
فَمَا بَقَائِي بَعْدَهُ
فَهَلْ سَمِعْتُمْ قَبْلِي
عَاشَ بِنَصْفِ رُوحٍ
نَحْنَا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ
حِينَ ثَوَى فِي الرَّمْسِ
وَشَطَرَ نَفْسِي عِنْدَهُ
فِيمَنْ مَضَى بِمَثَلِي
فِي بَدَنِ صَحِيحٍ

ثم تَحِينُ وَقَلَنْ لِبَعْضِ الْخَدَمِ كَمْ عِنْدَكَ مِنْهُنَّ ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ ، قَلَنْ أَتَيْتِ بَهْنَ ،
فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَ بِقَفْصٍ فِيهِ أَرْبَعَةُ غُرَبَانَ مَكْتَفَاتٍ فَوَضَعَ الْقَفْصَ بَيْنَ
أَيْدِيهِنَّ فَدَعَوْنَ بَعِيدَانِ فَأَخَذَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَوْدًا فَغَنَّتْ :

لَعَمْرِي لَقَدْ صَاحَ الْغُرَابُ بَيْنَهُمْ
فَأَوْجَعَ قَلْبِي بِالْحَدِيثِ الَّذِي يَبْدَى
فَقَلْتُ لَهُ أَفْصَحْتَ لَا طَرْتَ بَعْدَهَا
بَرِيشَ فَهَلْ لِلْقَلْبِ وَيَحْكُ مِنْ رَدِّ

ثُمَّ أَخَذَنْ وَاحِدًا مِنَ الْغُرَبَانَ فَتَفَنَّ رِيْشَهُ حَتَّى تَرَكَهُ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ رِيْشٌ
قَطْ ، ثُمَّ ضَرَبَنَّهُ بِقَضْبَانِ مَعَهُنَّ لَا أَدْرِي مَا هِيَ حَتَّى قَتَلَتْهُ ، ثُمَّ غَنَّتْ :

أَشَاقُكَ وَاللَّيْلُ مُلْقَى الْجَرَآنِ
أَحْصَى الْجَنَاحُ شَدِيدَ الصَّيَاحِ
وَفِي نَعْبَاتِ الْغُرَابِ اغْتِرَابِ
غُرَابُ يَنْوَحُ عَلَى غَصْنِ بَانَ
يَبْكِي بَعِينِينَ مَا تَهْمَلَانِ
وَفِي الْبَانَ بَيْنَ بَعِيدِ التَّدَانِ

ثُمَّ أَخَذَنْ الثَّانِي فَشَدَدَنْ فِي رِجْلَيْهِ خَيْطَيْنِ وَبَاعَدَنْ بَيْنَهُمَا وَجَعَلَنْ يَقْلَنْ لَهُ

أتبكي بلا دمع وتفرق بين الألف ! فمن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة

ألا يا غراب البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير
فبين لنا ما قلت إذ أنت واقع وبين لنا ما قلت حين تطير
فإن يك حقاً ما تقول فأصبحت همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسوراً عديماً لناصر كما ليس لى من ظالمى نصير
ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت ففعل به

ذلك ، ثم غنت الرابعة

عشية ما لى حيلة غير أنى بلقط الحصى والخط فى الدار مولع
أخط وأحو كل ما قد خططته بدمعى والغربان فى الدار وقع
ثم قالت لأخواتها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى فى رأسه
شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغداء فأكلن ،
ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن
عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى :

أبكى فراقكم عيني فأرقها إن الحب على الأحباب بكاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا ورب الدهر عداء

ثم غنت الثانية :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر

ثم غنت الثالثة

سأبكى على ما فات منك صباية وأندب أيام الأمانى الذواهب

أحين دنا مِن كنت أرجو دنوه رمتي عيون الناس من كل جانب
فأصيحت مرحوماً وكنت مُحسداً فصبراً على مكروه مُر العواقب

ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الأيام حتى يسرنى بك الدهر أو تفنى حياتي مع الدهر
عزاء وصبراً أسعداني على الهوى وأحمد ما جرّبت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعاتقتها وبكت وبكين ثم شكّون إليها جميع ما كن فيه ،
ثم أمرن بالصورة فطويت ، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن ، فرفعت رأسي
اليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغريبان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً
للكلام لأخبرناك بقصة الغريبان . قال فقلت إنما أخبرتك بالحق ، قلن وما الحق
في هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذلك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذلك صرت
عدو كل غراب . فقلت لهن : فبالذي خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة الصورة
لما خبرتني بخبركن ! قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا حقه
ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدة البارد دون
صاحبها ، فاخترمت صاحبة الصورة من بيتنا ، فنحن نصنع في كل موضع نجتمع فيه
مثل الذي رأيت ، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغريبان لعله
كانت ، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت
تذمهن عندنا وتأمر بقتلهن ، فأقل ما لها عندنا أن نمثل ما أمرت به ، ولو كان فيك
شيء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغريبان ، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابي
فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خبر ولا رأيت لهن أثراً

٨ - حديث ناسكة

حدَّث التَّوْزِي عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأبلة فإذا أنا بنجباء أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بنخيمة ، وفي الخيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشتري ، فدنوت فسلمت فلم ترد على السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهّد الزاهدون والمابدون إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه فضى ليلهم وهم ساهرونا
حيرتهم محبة الله حتى علم الناس أن فيهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن قد شجّاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت إليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركها وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لا تينها فأنظر قصتها في هذا المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول : والذي أسكن قلبي من طرف سحر بصني محبة اشتياقك إن قلبي ليقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلى فقالت يا هذا ! إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل عليه غيثاً فسقاه ، وأطلع عليه فحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : العباد عبادك ، وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتبة

إن إلهي لغني حميد لي كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أريد

٩ - بين القبور

حدث التَّوْزِي عن مصعب قال : قرأت على لوحين فوق قبرين :
أمعطى على بصرى في الحـب أم أنت أكمل الناس حسنا

وحدث أئذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا

ورأيت امرأة عند القبرين وهي تقول: بأبي! لم تتمك الدنيا من لذتها، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى، فأوفرتني كدا، فصرت مطية للأحزان، فليت شعري كيف وجدت مَمِّيك، وماذا قلت وقيل لك، ثم قالت: استودعتك من وهبك لي ثم سلبنى أسراً ما كنت بك. فقلت لها يا أمه! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلّمى لأمره. فقالت: هاه! نعم فجزاك الله خيراً، لا حرمنى الله أجرك ولا فتنى بفراقك. فقلت لها من هذا! فقالت: ابني، وهذه ابنة عمه، كان مسمى بها، زُفت إليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقضت، فانصدع قلب ابني فلحقت روحه روحها، فدفعتهما في ساعة واحدة؛ فقلت فمن كتب هذا على القبرين، قالت أنا، قلت وكيف؟ قالت: كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين فحفظتهما لكثرة تلاوته لهما، فقلت ممن أنت؟ فقالت فزارية، قلت ومن قائلهما قالت: كريم بن كريم، سخي بن سخي، شجاع ابن بطل، قلت من؟ قالت: مالك بن أسماء بن خارجة يقولهما في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الانصارى، ثم قالت وهو الذي يقول:

يا مُنزل النيث بعد ما قنطوا	ويا ولى النعماء والمنز
يكون ما شئت أن يكون وما	قدرت ألا يكون لم يكن
يا جارة الحى كنت لى سكناً	إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكرُ من جارتى ومجلسها	طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقه	ما لحديث الموموق من ثمن

قال فكتبتها، ثم قامت مولىة فقالت : شغلتي عما إليه قصدت لتسكين مابي
من الأحران

١٠ — حديث أرملة

حدث الأصمى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً لي فخرجت في طلبهن ، فمررت
بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إبل لي أضللتها ، فهل
عندك شيء من علمها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى !
قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من
طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصعداء ، ثم بكّت وأطالت البكاء ،
وأنشأت تقول :

إني وإن عرّضت أشياء تضحكني	لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليل أحيأ لي تذكره	والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين صار مؤنسها	بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدته	كأن صورته الحسناء لم تكن
أبكى عليه حيناً حين أذكره	حين والهمة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهري مصيبته	وطير النوم عن عيني وأرقني
والله لا أنس حي الدهر ما سجمت	حمامة أو بكى طير على فتن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها : هل لك
من بعل لا تُدَمّ خلائقه وتومَن بوائقه ؟ فأطرقت ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كفصنين في أصل غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه	دهرٌ يكر بفرحات وترحات

وكان عاهدني إن خاني زمن ألا بضاجع أنثى بعد مثواني
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُنيات
فاصرف عنانك عمن ليس يردعه عن الوفاء خلاب في التحيات

١١ — حديث فتاة

حدث التوزي عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لي
فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحبي : لو ملت
بنا إليها فاستسقيناها ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا ماء ،
فقال : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهي تقول :

ألا حي شخصي قاصدين أراها أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما
هما استسقى ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاها

١٢ — عظة امرأة

حدث محمد بن سلام الجُمحي يقول : سمعت رجلاً من بني سليم يقول :
هويت امرأة من الحي ، فكنت أتبعها إذا خرجت الى المسجد ، فعرفت ذلك مني ،
فقال لي ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هي ؟ قلت مودتك ،
قالت : دع ذلك ليوم التغابن^(١) . قال فأبكتني والله فما عدت إليها بعد ذلك

١٣ — ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى أعرابية بمكان خال ، والليل
منسدل الست فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : أنظر هل يرانا من أحد !
قال ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبهت الرجل وانصرف
ذاهلاً ما يتكلم

(١) يوم التغابن ! يوم القيامة . سمي بذلك لأن أهل الجنة يغفون فيه أهل النار

المرأة الاندلسية

ابتعد العرب بانتقالهم الى الأندلس عن أكثر ظواهر الحياة العربية الأولى .
فهم من مهبطهم الجديد فى خميّة نشر الله عليها من سمات الحسن وآيات الجمال ما
يستقيد العين والنفس والقلب والخيال ، حتى خيّل لشاعرها أن يقول :

يا آل اندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تتقوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وهم فوق ما نعموا به من زهو الطبيعة وجلوة الأرض ، نعموا كذلك بالكثير
الموفور من رفاهة العيش واغداق النعيم ، لِمَا آل إليهم من كنوز القُوط ولما
حوته أرضهم وديارهم من أفانين الثراء وأسباب النماء

وقد أصبحوا بهبوطهم تلك البلاد فى نجوة من بلادهم لا تصلهم بها الا الوفود
الترددة بين الشرق والغرب على بعد الدار ونأى المزار ، أما جيرانهم الأدنُون
وخطاؤهم الأقربون فهم أهل البلاد الصميمون الذين تمتعوا بأوفى نصيب من
بلهنية العيش ولذات الحياة وما يقتضيه كل ذلك من سرف وترف ولهو ونعيم .

وعلى الرغم من ذلك سار الأمويون فى الأندلس دهرًا طويلاً على مسار أسلافهم
فى الشرق من الاحتجاز بأنفسهم عن الأمم المغلوبة حفظاً لعصبيتهم ووقاية
لانسابهم وحماية لأخلاقهم أن يوهنها الضعف والانحلال .

وفوق ذلك لبث الأمويون يطفئون الفتن ويخمدون الثورات ويدفعون العدو
المتوشب على الثغور أمداً طويلاً . فلم يرخوا أعنة اللحو الى حد بعيد كما كان
العباسيون يفعلون ، حتى إن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وهو الذى رفع

الاندلس الى الذروة العليا من عزة الجانب ونضارة الحضارة وطيب العيش ونعيم الحياة لم يصف له من دهره — كما قال — إلا أربع عشرة ليلة ، وقد أقام في الملك خمسين عاماً

وبحق لقد استحظى كثير من ملوك بني أمية كثيراً من الجوارى الروميات والصقلييات وبذلوا لهم أفضل ما يتمن من رغيد العيش وبعيد الآمال ، ولكنهم لم يُفسدن العنصر العربي لأنهم لم يكن بالكثرة التي تمكنهم من غلبة الرجال على أمرهم وافساد ما بينهم وبين نساءهم ، ولم يكن من خلاصة الفارسيات ولباقتهم واحتوائهم على أبواب الرجال في قليل ولا كثير ، ذلك الى أنهم لم يكن يعتمدون — كما كان الفارسيات يعتمدون — على فريق من الرجال يشدون أزهرن ، ويُنهجون طريقهن ، ويستثمرون نفوذهن في بيوت الخلفاء والوزراء .

لم يكن أولئك الجوارى إذا سوى وسائل لهو وأدوات زينة ، لأنهم لم يملكن من أسباب اقتياد الرجال إلا الجمال وحده ، والمتعة بالجمال حد ينتهي إليه ، ومهما بلغت فإن غايتها الى ابتدال وملال .

ولم يكن ذلك المهد الأموى بالاندلس عهد لذات مجترحة ولا حرمان مباحة ولم يظهر من الناس من دأبه قذف المحصنات ، وإشاعة الفاحشة بين الناس كما كان يفعل ذلك شعراء الفرس وأدباؤهم في بغداد لتوهين الأعراض وإباحة الحرمات وكان للدين سلطان مبين على الأعياء والدّهماء ، ومما زاد الروح الديني استقطار واستفاضة تلك الشوكة العظيمة التي كان المسلمون يقابلون بها عدوان الجلالة وغيرهم من المترصدين للعرب والإسلام .

من أجل ذلك لم يكن طريق المرأة الأندلسية شائكاً وعراً ولا ضيقاً حرجاً ، بل كان واضحاً قصداً وصراطاً قويمًا ، لا لغوفه ولا تأثيم ، فلم يكن بدعاً أن تسير

لغايتها من اسعاد الأسرة ، وإصلاح البيت ، وتزكية النشء ، وأن يسير الرجل لغاياته من ولاية الأمر ورياضة العمل وحياطة البلاد ، ثم يلتقيان في معاهد العلم ومجامع الأدب .

ولقد كان النساء يخرجن إلى المسجد الجامع في قرطبة وإلى سواه من معاهد العلم فيجلسن في حلقات الدروس منتقيات محتشبات .

وقد ظهر من النساء عدد لا كفاء له في فنون من العلم والأدب . وكان لهن في تلك الحياة العاملة شأن نابه وشأو بعيد ، ومنهن الشواعر ، والكاتبات ، والمحدثات ، والمتفقيات ، والمعلمات ، والمتطربات .

وكان نساء الخلفاء والعظماء في غنى عن الأطباء بالطيبات ، وعن المعلمين بالمعلمات

عصر عظمة المرأة الأندلسية

امتد عصر عظمة المرأة الأندلسية حتى جاوز القرن الرابع الى بعض ما يليه ، وفي خلال ذلك الأمد الطويل كانت المرأة مضرب المثل في جلال الخلق وقوة النفس ووفرة العلم والبعد عن هنات الاجتماع ؛ وعلى الرغم من مسيرتها الرجل في طلب العلم والبلوغ في تحصيله لا تجد فيها زهواً ولا غروراً ، ولا اندفاعاً فيما ليس من حقها من شئون الحياة ، وما أثر عنها في طَوَال ذلك العهد أنها عاقرت النبيذ أو تبذلت في مجالس الرجال كما أثر ذلك عن المرأة العراقية في زهو الدولة العباسية . ذلك لأن الروح العربي والعصبية العربية كانا غالبيين على كل مظاهر الحياة في ذلك العهد ، حتى لقد احتفظت بطون العرب وعشاؤها في تلك البلاد بوحدتها وجامعتها كأنها لم تنزل في تهامة ونجد من أرجاء الصحراء ، فكانت قيس تقيم في موطن وتقيم في آخر وتجيّب في ثالث ، وبين الرجل وعشيرته عقدة جامعة ورباط وثيق

القرن الخامس

بدأت الأندلس في خلال المائة الخامسة تُميد بأعباء الفتن السياسية ، فقد سقطت الدولة الأموية ونهضت في أثرها دويلات المتغلبين من ملوك الطوائف وكان من شأن ذلك التمزيق الذي فرق أوصال الملك وشتت شمل الأمة أن يخذ جذوة العلم ويوهن قوة الأدب لولا أن الرعيل الأول من أولئك المتغلبين كانوا من أئمة العلم وفرسان الأدب وأعيان البيان ، فأعانوا العلماء والأدباء والشعراء بكل ما في طوقهم من معونة وما في خزائهم من مال ، وتنافسوا في استيزار الكتاب والشعراء واستزارة الأدباء والعلماء حتى أثمرت المواهب الناضرة وانحسرت العقول النيرة عن أفضل نتاج من العلم والأدب

وفي هذا العصر وما يليه تَسَامَى خيال أهل الأندلس إلى أبعد ما يتسامى إليه خيال الشاعر الساحر ، وجاءوا بالمقطعات النادرة والموشحات المبتكرة ، وبرزوا أهل العراق في وصف ما امتازت به بلادهم من مظاهر الطبيعة المشرقة ، ومسارح الحياة المتألقة فلا تجد أوصف منهم للرياض والفياض والبحار والأنهار والمنازر والملاعب والطير والهديل والسَّحَر والأصيل

وبدأت المرأة الأندلسية في هذا العصر تنكشف وتأخذ فيما أخذ الناس فيه من لهو ونعيم ، وجاذبت الرجل فنون المَرَح وقالت ما لم يكن يقوله غيره من تغزل وتخالع وتفرُّق وتواصل ، ومناقضة ومماجنة ، ومناقلة ومداعبة ، ولكن الأخلاق بقيت في جملتها مستمسكة في هذا الجيل من النساء

وأول من سنت للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف ولأدة بنت المستكفي بالله سليفة بيت الملك الأموي في الأندلس

وكان أبوها المستكفي بقية ملوك بني أمية ، ولم يمهل الزمن حتى غلب على أمره

وقتل ، ومن بعده حَسَرَتْ ولادة حجابها واتخذت قصرها مهبطاً رحباً وممتدى خصباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والشعراء ، ومن هؤلاء الوزراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ويتساجلون الشعر ويتناولون النقد ويتناقلون الحديث ، وما كانت ولادة بمقصرة عن السابقين المجلّين من هؤلاء ، بل إنها لتعد من مبتكرات الشعر الأندلسي الحديث . وكم من الشعراء من يحسن أن يقول قول ولادة

ودَعَ الصبرَ محب ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك
يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أبا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك

بل كم منهم من يحسن أن يقول قولها للوزير الكاتب الشاعر ابن زيدون
ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر
وعلى رغم ما أقدمت عليه « ولادة » من هتك حجابها وتسنية أبوابها . يقول المؤرخون إنها لم تنزع إلى ريبة ولم تنزلق إلى مأثمة ، وأقامت حياتها لم تتزوج ، ومعمرت طويلاً ، وتوفيت في العام الرابع والثمانين من المائة الخامسة

ولولادة صواحب نشأ على أدبها وانكشفن على سننّها وأخذن في الدعاية مثل مأخذها ، ومن هؤلاء « مهجة القرطبية » وكانت أشد اندفاعاً في مجانة الشعر من استاذتها ، وقد حاولنا أن نرى لها شعراً بريئاً لنثبتها فلم نجد ، على أن شعر ولادة لم يكن في متناول النساء . لأن فيه خولة وجزالة . وهو بشعر الرجال أشبه ، ولكن أستاذة شواعر الأندلس التي أوردتهن من الشعر العذب الرقيق منهلاً ندى النفحات

صنى النسيمات ، هى حمدة - أو حمدونة - بنت زياد ، وأصلها من (وادی آش)
أحد أعمال الأندلس ، وهى أسبق من ولادة عهداً وأبعد منها مدى ، وفى شعرها
أنوثة كاملة وسهولة نادرة وخيال بعيد

ومن شعرها ، وكانت قد خرجت إلى النهر مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها
وعامت ، قالت :

أباح الدمع أسرارى بوادى	له فى الحسن آثار بَوَادٍ
فمن نهر يطوف بكل روض	ومن روض يرف بكل واد
ومن بين الظباء مهة أنس	سبت لى وقد ملكت فَوَادِى
لها لحظ تُرَقِّده لأمر	وذاك الأمر يمنعى رِقَادِى
إذا سدت ذوائبها عليها	رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق	فمن حزن تسربل بالسواد

فهذا هو الشعر النسوى الذى تسيغه نفوس النساء ويتأثرن به ويقتفين سبيله .
ومن أفضل ما يسمو اليه الخيال قولها تصف الرملة من أرباض وادى آش

وقانا لفحفة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحميها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى	فتمس جانب العقد النظيم

فهذا الأسلوب من هذا الشعر لا تجد أرق ولا أدق ولا أنعم فى الآذان ولا
أندى على الأكباد منه

ومن أبلغ ما وصلت اليه صناعة الشعر قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لهم عندى وعندك من نار
وشنوا على أسمعنا كل غارة وقل مُحَمَّاتٍ عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقتلِكَ وأدمى ومن نَفَسى بالسيف والسيـل والنار

ولحمة أخت تدعى « زينب » وكانت شاعرة كاختها

ومن أستاذات هذا العصر فى الشعر مريم بنت يعقوب الأنصارى ، وكانت تغدو على بيوت أشبيلية فتعلم نساءها الشعر والأدب ، ولها بينهن منزلة محمودة لسمو أدبها وفرط حشمتها ، وكان عظماء البلد يحلون لها ويدنونها لعراقة أثرها ونبالة خلقها وحسن بديعتها . وقد أرسل اليها المهدي صاحب أشبيلية دنانير فى قرطاس كتب فيه :

مالى بشكر الذى أوليت من قبل لو أننى حزت نطق اللسن فى الخلل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر فى الاخلاص والعمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع وققت خنساء فى الأشعار والمثل
فأجابته الشاعرة :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل وقد بدرت إلى فضل ولم تُسل
مالى بشكر الذى نظمت فى عنق من اللآلى وما أوليت — من قبل
لله أخلاقك الفر التى سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل
من كان والده العضب المهندلم يلد من النسل غير البيض والأسل

وكان نساء غرناطة أعرف بالشعر ومعانيه وصوغه وصقله من غيرهن ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهن كن يُدْعَيْن العرييات لسيرهن على سَنِّ العرب فى صفاء الشعر وفصاحة المعانى ، فبدل أن يقال هذه غرناطية كان يقال هى عرية .

ومن شوارعها الصادحات نزهون الغرناطية، وكانت من أعذب النساء طبعاً وأروجهنّ نفساً وأرقهنّ بالشعر وأضربهنّ للأمثال، ولها في مجالس الوزراء والأمراء أثرٌ منزلة وأعز مكان، وكانت فوق ما عرفت به من رقة الطبع وسماحة الذوق من أحسن الناس بديهة وأحضرهم جواباً.

ومما حدثوا عنها أنها كانت تقرأ ذات مرة على أبي بكر الخزومي الأعمى فدخل عليهما أبو بكر الكندي فقال يخاطب الخزومي : لو كنت تبصر من تجالسه : وأخف فلم يستطع أن يتم البيت الذي بدأه فقالت نزهون

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرته والنصن يمرح في غلائله

ومن شعرها الذي أرخت لنفسها العذار فيه

لله در الليالي ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى في ساعدي قر بل ريم خازمة في ساعدي أسد

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء ليناظرها — وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء — فلما رآته قالت إنك اليوم كبقرة بني إسرائيل، صفراء فاقع لونها، ولكن لا تسر الناظرين، فضحك الحضور، وثار ابن قزمان واندفع يسب، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه في بركة أمام البستان الذي احتفل المجلس به.

وفي هذا العصر ذاع الشعر النسوي القصصى، فكان مما يألوه النساء أن ييسطن حديثهن شعراً، وقد يكون ذلك في حفل حاشد أو بين يدي ملك أو في رسالة إلى أب أو صديق، ومن أمثلة ذلك رسالة بثينة بنت المتمد إلى أبيها.

وحديث ذلك أن المتمد بن عباد بعد أن دفع به القضاء من قصره الأغزن

في أشبيلية إلى سجن ابن تاشفين في أغمت — من أعمال فاس — سُبِيَتْ ابنته بثينة
 فيمن سبي من الجوارى ويبتع من أحد تجار أشبيلية على أنها جارية، فوهبها
 التاجر ابنه، فلما رأت الجَد من الأمر كشفت القناع عن نسبها الملكي، وقالت
 لولد التاجر لا أحل لك إلا بعقد يحيزه أبي، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من
 قبلها إلى أبيها وانتظار جوابه فكان الذي كتبته هذه الأبيات

اسمع كلامي واستمع لمقاتلي	فهي السلوك بدت من الأبياد
لا تنكروا أني سبيت وأنني	بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره	وكذا الزمان يؤول للافساد
لما أراد الله فرقة شملنا	وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه	فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ	لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني	من صانني إلا من الانكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر	حسن الخلاق من بني الأنجاد
ومضى اليك يسوم رأيك في الرضا	ولأنت تنظر في طريق رشادى
فمساك يا أبتى تعرفني به	إن كان ممن يُرتجى لوداد
وعسى رمية الملوك بفضلها	تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما بلغته مقالة ابنته وهو ثاو في غياهب سجنه مطوق في قيوده وأغلاله
 أدركه شيء من حسن العزاء لنجاتها، وأشهد على نفسه بعقد زواجها، وكتب إليها
 يهنئها ويتسلى بحسن عاقبة الزمان فيها، وكتب آخر رسالته
 بُنِيَتْ كوني به بَرَّةً فقد قضى الدهر باسعاغه

وشبهه بهذا الأسلوب من الشعر النسوى الأندلسى شكوى الشاعرة الشَّليَّة

إلى السلطان يعقوب المنصور صاحب غرناطة من عماله على بلدها ، فقد كتبت
هذه الشكوى وألقتها على مُصَلَّى المنصور يوم الجمعة ، فلما قضى صلاته فضا
وقراها فاذا فيها

قد آن أن تبكى العيون الآية	ولقد أرى أن الحجارة باكية
يا قاصد المصر الذي يُرجى به	— إن قدّر الرحمن — رفع كراهية
ناد الأمير إذا وقفت ببابه	يا راعياً إن الرعية فانية
أرسلتها هملاً ولا مرعى لها	وتركتها نهب السباع العادية
شَلْبٌ كَلَّا شَلْبٍ وكانت جنة	فأعادها الطاغون ناراً حامية
حافوا وما خافوا عقوبة ربهم	والله لا تخفى عليه خافية

فأنصف المرأة بعدله ووصلها بجزيل ماله

وحديث الأدب النسوى في هذا العصر حديث شيق اليف ، وإذا قلت لك
أن هناك استاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة الأدب
ويروينهن الشعر فلا تظنّ هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل
ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأفذاذ رجاله على سواء واحد من العلم والأدب
والفهم والتخريج ، ومن أمثلة هؤلاء الشاعرة العروضية إحدى فتيات بَلَنْسِيَّة
فقد تلقت النحو واللغة على الامام أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون ، ثم فاقت
فيهما وبزت علماء عصرها في العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والأُمالي
للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، وقد قرأهما عليها العالم يوسف بن نجاح وأخذ عنها
علم العروض .

ولقد يمتد بنا الطريق اذا استوفينا جانب الأدب من حياة المرأة الأندلسية
وهو أنصر جوانبها وأبهج حلاها في هذا العصر ، فبحسبنا أن ندل عليه ونكتفي
بهذا الطرف اليسير من حديثه .

ولقد حدثتك حديث الخلق النسوى في هذا العصر وأنه بقي في مجلته مستمسكا مستقيماً وإن كانت عوامل الضعف لبثت تغالبه من كل جانب وتحيط به من كل سبيل .

ومهد انقسام الأندلس وقيام ملوك الطوائف للعدو المترصد سبيل الظفر بالمنقسمين ، وبدأت النازلة الفادحة والخطب الجليل يهويان على البلاد في أخريات هذا القرن منذ استباح الأذفونش طليطلة من صاحبها ابن ذى النون عام ٤٧٨ ، ومن هنالك أخذ العدو المتغلب يجد في شططه وأخذ سلك البلاد ينتثر من وسطه كما قال الشاعر ابن العسال .

جثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها الا من الفلظ
السلك يثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة مشوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف المقام مع الحياة في سَفَط
وكذلك بدأت دعائم الخلق تهتز وأنشأ صرح الحياة يمد

بعد القرن الخامس

ألم مسعد منجد ذو فِطْن يُنْكِي بدمع معين هَتِين
جزيرة أندلس قد سَطَّت عليها غوائل حقد الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ويرثى من الشعر ما قد وهن
ويبكي اليتامى ويبكي الأيامى ويحكى الحام ذوات الشجن
ويشكو الى الله شكوى شج ويدعوه في السر ثم العلن
وكانت رباطاً لأهل الهدى فعادت مناطاً لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى فضارت ملاذاً لمن لم يدن
وكانت شجى في حلق العدى فأضحت لهم ما لها محتجن

ذلك بعض ما رثيت به الأندلس في القرن السادس الهجري أى قبل أن يحل بها القضاء الأخير بقرنين كاملين ، فقد أخذ العدو يوغل في قلب البلاد وأخذ أولئك المتملكون يلقون اليه بالمودة ، ويتقدمون اليه بالجزى ، ويستعين به بعضهم على بعض ، ومن لم يستعن به استصرخ المغيرين من ملوك فاس ، وترك أهل الأندلس تلك القوى المتدافعة تتناجز على البلاد وراحوا يلهون ويلعبون ، ويشربون ويطربون ، ويسحبون في مضمار الخلاعة أرسانا ، ويستبقون في ميدان البطالة فرسانا ، واستشفروا الى الجوارى الروميات والمهاجرات المغريات يتسرونهن ويستولدنهن ، وغادروا المرأة الأندلسية تندفع فيما هم مندفعون ، وتشرب بالكأس التى يشربون ، فالتأت الأخلاق ، واضطربت الأعراق ، وفترت الحمية ، وضاع الحفظ .

وبدءوا يتشبهون بالفرنجة فيما أمكنهم أن يتشبهوا به ، وماذا يملك الضعيف الدليل من التشبه بالقوى العزيزة ؟ ليس إلا المظاهر الجذابة من زى ييسطه عليه ، أو كلمات من لفته يتقرب بها اليه ، أو إنحاء بالطعن على أهل ملته وعشيرته ، أو لجاج فى البراءة من آداب دينه وأمته ، فأما الدأب فى العمل ، والامعان فى الثبات ، والتضحية فى الواجب ، وفناء الواحد فى عز الجماعة ، والطاعة فى غير ذل ، والبذل فى غير رياء ، فذلك ما لا يملك الضعيف أن يتشبه بالقوى فيه ، لأن النفس واهنة ، والعقل مضطرب ، والقلب رخو مريض . وكذلك فعل الأندلسيون . فقد غلوا فى التشبه بالفرنج فى عامة مظاهرهم ، فلبسوا برانسهم ، واعتمروا قلائسهم ، ومضغوا أفاضهم ، وتزوجوا الدنيات من نسائهم .

وأول من سن طريق الغلو فى اقتفاء الهين القريب من مظاهر الفرنجة محمد ابن سعد بن مردنيش الجذامى أمير شرقى الأندلس فى منتصف القرن السادس ،

وذلك ما يقوله عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة »

وآثر « ابن مردنیش » زى النصارى من الملابس والسلاح واللّجُم والسروج ، وكلف بلسانهم ، وألجأه الخروج عن الجماعة والافتراق بنفسه الى الاحتماء بالنصارى ومصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم ، وصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة ، وصالح ملك قشتالة على أخرى ، فكان يبذل لهم فى السنة خمسين ألفاً من المائيل ، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات !! وحانات للخمور ! وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم . فعظمت فى بلاده المغارم وثقلت ؛ وأما رسوم الأعراس والملاهى خالاتها عجبة .

حدث بعض المؤرخين عن الثقة قال : كنت بجيَّان مع الوزير أبى جعفر الوقشى فوصل اليه رجل من أهل مُرسية كان يعرفه ، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنیش وعن سيرته ، فقال الرجل أخبرك بما رأيت من جَوِّ رعماله وظلمهم ، وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بنظر شاطبة ضيعة يعيش بها ، وكان لازمها أكثر من فائدتها ، فأعطى لازمها حتى افتقر ، وفر الى مرسية ، وكان أمر بن مردنیش أن من فر من الرعية أمام العدو أخذ ماله للمخزن ، قال الرجل فلما رحلت الى مرسية فاراً عن وطنى خدمت الناس فى البنيان ، فاجتمع لى مثقالان سعديان ، فبينما أنا أمشى فى السوق واذا بقوم من أهل بلدى شاطبة ، فسألتهم عن أولادى وزوجتى ، فقالوا إنهم فى عافية ، ففرحت فرحاً عظيماً وسألتهم عن الضيعة ، فقالوا إنها باقية عند أولادك . فقلت لهم عسى أن تبتوا عندى الليلة ، فاشتريت لحماً وشراباً وضربنا دفاً ، فلما كان عند الصباح اذا بنقر عنيف بالباب ،

فقلت من أنت ! قال أنا الطرقون الذى يده قبالة اللهو ، وهى متفقة يدي ،
وأتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذى عملت ، فقلت والله ما كان
لى عرس فأخذت وسجنت حتى اقتديت بمثقال من الذى خدمت به وجئت الى
الدار فقيل له ان فلاناً وصل من شاطبة الساعة فشيت لأسأله عن الدار وعن قرابتى
وعرفته بالأمر الذى طرأ على وبكيت طول ليلتى وبكى معى ، فلما كان من الغد اذا
بناقر بالباب ، فخرجت فاذا أنا برجل فقال أنا صاحب المواريث أعلمنا أنكم بكيتم
البارحة وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنى وأخذتم كل ما ترك ، فقلت والله
ما بكيت الا نفسى ، فكذبى وحملنى الى السجن فدفعت المثلثال الثانى »

ذلك بمض ما يحدث فى عهد التياث الحكم واضطرابه وانحراف الأمر واتقلا به ،
على أن ما أصاب البلاد من فتنة ناشبة وشر وويل لم يشه هؤلاء الناس عن الاندفاع
فى اللهو الى قرار الهاوية

وأصبح الاندماج فى الفرنج بالمظاهر والعادات وبالملق والرياء سنة مسلوكة
وطبعاً مألوفاً عند أهل الأندلس ، ومن العجب أن عالماً ضليعاً كعزيز بن خطاب
يؤلى ملكاً مرسية لعلمه وفضله ، فاذا جاءه الخطباء ليخطبوا له بالملك استمع أقوالهم
حاسر الرأس كما كان يعمل ملوك الفرنج .

وكان ابن هود ملك الأندلس يسير فى أشتات بلاده حاسر الرأس ، وعلى هذا
السبيل كان بنو الأحمر ينهجون .

وكان علماء الأندلس يرخون ذوائبهم ، ولم يسمح لغيرهم أن يفعل ذلك سيراً
على سنة الفرنج فى رجال الأدب والفنون منهم .

ولبس النساء المناطق الأسبانيولية ! واعتمرن القبعات الاسبانيولية ! وخرج
الفتيات حواسر الرؤوس كواشف الصدور على مثال الأسبان ، وفى كثير من الصور

التي خلفها الأندلسيون منقورة في الجدران أو منقوشة في الزجاج أو مرقومة على
التياب أو محفوظة في الكتب والرقاع ما يدل على انسياق المرأة الأندلسية في مساق
الأسبانية وأخلاعها عن تقاليد السلف الصالح من الأمهات الأندلسيات . ورغم
ما تورطت فيه امرأة هذا العصر من تهور واندفاع لم تكن بنجوة من العلم والأدب ،
فقد نالت منهما أكثر مما نالت في عصورها السالفة ، ولكن ويل للأمة من
المرأة العاملة التي لا خلق لها ولا دين .

وأستاذة الشوارع في العصر الأندلسي الأخير حفصة بنت الحاج الركونية ، وهي
إحدى شريفات غرناطة الظاهرات بوفر المال وفرط الجمال وما تزدان به المجالس
من حسن المساجلة وهو الحديث . ولذلك لم يكن بدعاً أن يغدو في أثرها كثير من
نساء هذا العصر ، وكانت نشأتها في القرن السادس وعمرت الى منتهاه

وكانت حفصة في شعرها متدفعه غير متجملة ولا محتشمة ، لأنها إنما تحكى
صورة هذا العصر وتنزع عن غايته ، وكانت تذيع هذا الشعر فيرويهِ الناس عنها
وهم بها معجبون

ومن شعرها ما كتبه الى فتى اشتهرت به

أزورك أم ترور فان قلبي	إلى ما تشتهي أبداً عيلى
فغرى مَورد عذب زلال	وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظا وتضحى	إذا وافى اليك بى المقيلى
فمجلّ بالجواب فما جميل	إباؤك عن بثينة يا جميل

ومن شعرها وقد أرسلته الى الأمير أبى سعيد فى مجلس أنسه

زائر قد أتى يجيد الغزال	مطلع تحت جناحه لللال
بلحاظ من سحر بابل صيغت	ورضاب يفوق بنت الدوالى

يفضح الورد ما حوى منه خد وكذا الثغر فاضح للآلى
ما ترى فى دخوله بعد إذن أو تراه لعارض فى انفصال
ومن شعرها

سلام يُفَتِّحُ زهر الكما موينطق بالشدو ورق الغصون
على نازح قد ثوى فى الحشا وإن كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبوا العبد ينسأكم فذلك والله ما لا يكون
ومما نسب إليها

أغار عليك من عيني رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنى خبأتك فى عيونى الى يوم القيامة ما كفى

وعلى سَنَنٍ ما أسلفت لك سارت المرأة الأندلسية بعد القرن السادس جامعة
النفس مخلوعة العذار، ووهنت منها قوة الدين وخَفَرُ الحياء، وهدمت ركن البيت
ومزقت آصرة الأسرة، وهى الغارس والأمة الغرس، والبانى والأمة البناء، فاذا
صرفها اللهو واللعب عما وكلها الله به من حياطة خلقه ورعاية حقه فما هى الا نهلة
بعد نهلة حتى ينتقض البناء، ويستحكم البلاء وترتفع صيحة القضاء، وتعصف عاصفة
الفناء « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميراً » وكذلك حقت كلمة الله على أهل الأندلس حين ائتمنهم الله على أرضه فلم
يرعوا أمانته، واسترعاهم دينه فلم يوفوه رعايته، وأحلهم دار النعمة فابطرتهم،
وسوغ لهم صباية الأمل فاسكرتهم، وكان ما أصابهم عبرة العبر ومثلة المثلات، فقد
ظهر عليهم العدو المستبيح فزق رجالهم واستعبد نساءهم وصرع بين أعينهم أطفالهم
فلو ترام حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت نسام عند يعمهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما كما تُفَرِّق أرواح وأبدان
 وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
 يقودها العليجُ للمكروه مكرهه والعين باكية والقلب حران
 مثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

أثارة من أدب النساء في الأندلس

١ - كتبت ولادة بنت المستكفي الى ابن زيدون

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
 تمر الليالي لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتقى
 سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكب هاطل الودق مغدق

٢ - للشاعرة الغسانية البجائية - وهي من شواغر المائة الرابعة :

عهدتهم والعيش في ظل وصلهم أنيق وروض الوصل أخضر فينان
 ليالى سعد ، لا يخاف على الهوى عتاب ، ولا يخشى على الوصل هجران

٣ - سألت امرأة من شريفات غرناطة حفصة الركونية تذكراً تكتبه بخطها
 فكتبت إليها

ياربة الحسن بل ياربة الكرم غضى جفونك عما خطه قلبي
 تصفحيه بلحظ الود منعمة لا تحفل بردي الخط والكلم

٤ - كتبت حسانة التيمية الى الحكم بن الناصر

أنت الامام الذى انتقاد الأنام له وملكته مقاليد النهى الأم
 لا شئ أخشى اذا ما كنت لى كفا آوى اليه ولا يعرفونى العدم
 لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً حتى تذ لك العرب والمعم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته ووظف لها عطاء كريماً وكتب الى عاملة على (البيرة) - من أعمال الأندلس - فجهزها بجهاز حسن

ه - وكان الحكم قد كتب الى والى البيرة بتحرير أملاكها وردها اليها - ولا نعلم كيف نُزعت منها - واتفق أن عوجل الحكم بالموت فلم يقض الوالى لها بشئ فلما طال مطاله لها ذهبت الى ابنه الخليفة عبد الرحمن فلما مُثلت بين يديه انتسبت اليه ، فعرفها وعرف أباهام أنشدت

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى	على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى انه خير جابر	ويعننى من ذى الظلامة جابر
فانى وأبنائى بقبضة كفه	كذى الریش أضحى فى مغالب كاسر
جدير لمثلئ أن يقال مرؤعة	لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاء الحيا ، لو كان حياً لما اعتدى	على زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يميناه جابر	لقد سام بالأملأك احدى الكبائر

ثم بسطت أمرها وأرته خط آيه فقبله وقال : لقد تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأى الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك ووقع لها بمثل توقيع والده ، وأجازها بجائزة كريمة فشكرت له صنيعه بقصيدة جاء فيها :

ابن الهشامين خير الناس مأثرة	وخير متجع يوماً لرؤاد
ان هز يوم الوغى أثناء صعده	روى أنايبها من صرف فرصاد
قل للامام أيا خير الورى نسباً	مقابلا بين آباء وأجداد
جودت طبعى ولم ترض الظلامة لى	نهأك فضل ثناء رائج غاد
فان أقت فى نماك عاطفة	وان رحلت فقد زودتنى زادى

٥ — لأم العلاء بنت يوسف الحِجَارِيَّة^(١) — من شوارع المائة الخامسة

كل ما يصدر منكم حسنٌ وبعلياكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم وبذكراكم تلذّ الأذن
من يعيش دونكم في عمره فهو في نيل الأمانى يغبن

٦ — وخطبها رجل أشيب فكتبت اليه :

الشيب لا يُخدع فيه الصبي بحيلة فاسمع الى نصحي
فلا تكن أجهل من في الوري يبيت في الجهل كما يضحي

٧ — وقالت تعتذر

افهم مطارح أقوالى وما حكمت به الشواهد واعذرني ولا تلم
ولا تكني إلى عذر أيتته شر المعاذير ما يحتاج للكلم
وكل ما خلته من زلة فما أصبحت في ثقة من ذلك الكرم

٨ — لأم السعد بنت عصام الحِميرية القرطبية

آخ الرجال من الابا عد والأقارب لا تقارب
إن الأقارب كالعقا رب أو أشد من العقارب

٩ — للسيدة أمة العزيز

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح يجرح فاجعلوا ذا بدا فما الذى أوجب جرح الصدود

١٠ — حكى الوزير أبو المغيرة بن حزم قال :

نادمت يوماً المنصور بن أبى عامر فى مئنة السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير،
وهى جامعة بين روضة وغدير، فلما تضح النهار بزعفران العشى، ورفرف غراب

(١) نسبة الى وادى الحجارة من اعمال الاندلس

الغروب الدجوجي^١، وأسبل الليل جناحه، وتقلد السماء رحمة، وهم النسربالطيران،
وعام في الأفق زورق الزبرقان^(١)، أوقدنا مصايح الراح، واشتملنا ملاء الارتياح،
وللدجن فوقنا ملاء مضروب، ففتننا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب، وقالت

قدم الليل عند ستر النهار	وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خدّ	وكأن الظلام خط عذار
وكأن الكؤوس جامد ماء	وكأن المدام ذائب نار
نظري قد جنى علىّ ذنوباً	كيف مماجته عيني اعتذارى
يا لقومي تعجبوا من غزال	جائر في محبتي وهو جارى
ليت لو كان لى إليه سبيل	فأقضّى من الهوى أوطارى

١١ — كتب أبو عامر بن نيق الى هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسleme الشاطبي
يدعوها بهذين البيتين .

يا هند هل لك في زيارة فتية	نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا	نعمات عودك في الثقليل الأول
فكتبت في ظهر رقعة	

يا سيدا حاز العلا عن سادة	شم الأنوف من الطراز الأول
حسبي من الاسراع نحوك أننى	كنت الجواب مع الرسول المقبل

١٢ — كان عباد المعتضد كلفا بجاريته العبادية فسهر ليلة وهى نائمة فقال

تنام ومدنقها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر

فاتنبت له وأجابته

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشمر

١٣ — لحفصة الركونية تدم عبيدها

يا رب إني من عبيدى على
إما جهول أبله متعب
جر الفضا ما فيهم من نجيب
أو فطن من كيده لا يحيب

١٤ — لزينب المريّة

يأيها الراكب الغادى لطّيته
ما عالج الناس من وجد تضمنهم
عرج انبيك عن بعض الذى أجد
حسبي رضاه وأنى في مسرته
إلا ووحدى به فوق الذى وجدوا
ووده آخر الأيام أجتهد

١٥ — دعا أمير المؤمنين الناصر بحجامة ليفصده ، واتخذت لذلك الأهبة فى البهو
الكبير من قصر الزهراء ، فحين تقدم الحجام من سيده أطل عليه زر زور
من حديقة القصر فتغنى بهذين البيتين :

أيها الفاصد رفقا بأمر المؤمنين
إنما تفصد عرقا فيه يحيا العالمينا

فنظر الناصر إلى الطائر وأصغى إليه وقد ملكه العجب والاعجاب وسأل عمن
أوحى إليه ذلك الوحي البديع فقيل إنها السيدة الجليلة مرجانة زوج أمير المؤمنين
وأم ولى عهده فضوعف سروره واعجابه .

أما بعد فتلك طائفة من الأدب النسوى بالأندلس ؛ وهو على ما به من ظرف
ورقة لم يبلغ مبلغ نظيره فى العراق ، لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية ،
والجارية الفارسية فى الحاضرة ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ،
فالمرأة البدوية كانت كفضل النساء صفاء فى الطبع ، وتقاء فى النفس ، وسموا فى
الخطاير وجلالاً فى الغرض ، وروعة فى الأسلوب ، وكانت الجارية الفارسية على

ما علمت مَنار الفتنة والسحر في الغناء والشعر ، وكان للناس في العراق من هذين الموردين مَعِين غَدِق ، وروض خصيب ، وهما من وسائل الرقة التي امتزجت بالأدب العربي في العراق .

أما المرأة الأندلسية فمع مجاذبتها للرجل كثيراً من أطراف العلم والأدب لم تأت منه بما يعلو عن مألوف الكلام الا قليلاً ، لأن للأدب النسوي جمالاً خاصاً تنقل المرأة عن المرأة لا عن الرجل ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة في العراق عنيت برواية الأدب النسوي في البادية وأخذت كفايتها منه وعمدت الى ما أخذت فصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء النعيم لأتت بأطيب الثمرات وأنداها على القلوب والأكباد

ولا أعلم كيف غفل متأدبو الأندلس ومؤلفوهم عن استقصاء شعر نساءهم والعناية بتقييده ، فهم يسمون ولادة بنت المستكفي : عُلَية الأندلس ، ويدعون حمد بنت زياد خنساء المغرب وهم مع ذلك لا يذكرون لكليهما إلا القليل المحدود من الشعر الذي أثارته مناسبة أو قيده حادثة ، وقد لا يكون هذا من أفضل ما قاله الشاعرة ، بل قد يكون فوق ذلك غَنّاً تافهاً لا شأن له ، في حين أنهم حين دعوا ابن هانيء المغربي متنبئ الغرب وابن خفاجة الأندلسي صَنوبري الأندلس ذكر لهما ما جلّ ودق من شعرهما حتى لم يعد شيء منه خافياً عن أحد ، والعجب أن هذا القليل المحدود الذي تقل عن نساء الأندلس كان يتناوله مؤلفو القوم بعضهم عن بعض ، فليس هناك تبسط في النقل ولا استفاضة في البحث عن شعر النساء ، فهل لم تأت « خنساء المغرب » بأكثر من بضعة عشر بيتاً من الشعر أكثرها مداعبات ومطارحات ، وهل لم تأت « عُلَية الأندلس » بأكثر من عشرين بيتاً بعضها منسوب لغيرها ! أقول ولعل ذلك لأن أكثر الكتب

وصلتنا عن حياة الأندلس ألف بعد سقوط ذلك البلد العظيم ، وألف في بلاد خفي فيها أدب المرأة عن منال الأقلام ، فلم يحفل كتابها بها ، ولعلنا حين نجد في البحث عن ذخائر الكتب المودعة قصر الاسكوريال في « مدريد » نجد فيها كثيراً مما كتبه الأندلسيون عن أنفسهم وصوروا فيه حقيقة شأنهم ومثال حضارتهم فذلك أشقى للنفس وأروى للحقيقة ، وعسى أن نصل قريباً بعون الله وتوفيقه إلى تلك الغاية المنشودة فنكون قد سدنا ثغرة من الأدب العربي لا تزال حتى اليوم عميقة الأثر بعيدة القرار . والله ولي التوفيق .

المرأة المغربية

وحسبنا في هذا الجزء من الكتاب أن نتكلم عن المرأة في المغرب الأقصى .
أما المغرب الأدنى فحديث المرأة فيه طويل مستفيض لا يتسع له هذا الجزء ،
وموعدنا به الجزء الرابع مع المرأة المصرية ، لأن بين نساء هذا القطر من بلاد المغرب
وبين نساء مصر البدويات صلة الجوار وعقدة النسب وألفة الطباع والعادات .
وإذا تحدثنا عن المغرب الأقصى فانما نتحدث عن قطر كان فيما سلف من الدهر
لا تجف دماؤه المتفجرة ولا تخمد نيرانه المضطربة ، له في كل آونة عرش يقوم
ومصرع يترصد ، قد اختلف فيه كل ما فيه اختلافاً بيناً ، ففيه البربر والعرب ،
وفيه الخوارج والرافضة ، وفيه الواتر والموتور ، وفيه الدخيل والأصيل ، ذلك شأنه
وتلك حاله منذ بسط الاسلام ظله عليه .

وكان شأن المرأة في عامة تلك البلاد كشأنها في كل الشعوب المستبصلة المتبدية ،
لها قوة عاملة وصفة مستقلة وحياة ظاهرة ، وما كان يضير الرجل هنالك أن ينتسب
إلى أمه . ومن الذين ظهروا في هذه البلاد ممن انتسبوا إلى أمهاتهم ابن غانية القائد
المتغلب المملك ، وابن عائشة العالم الشاعر ، وبنو « سوط النساء » القادة الأبطال .
وما كان عجيباً أن تسود المرأة وتحكم ، وقديماً تكلم ابن خلدون عن امرأة تسمى
« شمس » كان لها عشرة أبناء استفحل أمرهم وتفاقم سلطانهم وألقوا إليها أزمة الأمر
وروضوا لها حكم البلاد فلم يكن هنالك دفع أو استنكار .

وكانت تأنف ويؤنف لها وتغار ويغار عليها إلى أن تؤثر ورد الموت على الذل
والهوان . ومما رواه ابن خلدون أن جيش بنى مرين قصد إلى السلطان أبي زيان
ابن عثمان وأخذ ينتقص أطراف بلاده ولم يقو جيشه عليه ، قال ابن خلدون فيد

السلطان وأخوه أبو حمو جالسان في بعض خاصتهما دخلت دعد قهرمانة القصر وقالت : يقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حُرِّمكم : ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسفَّ عدوكم لالتهاكم ولم يبق إلا فوق ناقة لمصارعكم ، فأريحونا معرفة السبي وقربونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه السلطان فقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن ؟ فقال ياموسى أرجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا . فقال إلى تخرج مع قومنا إلى عدونا فتستमित ويقضى الله ما شاء ! فغضب أبو حمو وأنكر عليه تأخير ذلك وقال انما نحن والله تتربص المعرفة بهن وبأنفسنا . وقام عنه مغضبا وأجهش السلطان بالبكاء فبينما القوم في مجلسهم هذا دخل حرسى فقال « إن السلطان يوسف بن يعقوب — ملك بنى مرين — قتل الساعة . وبمقتله انفض جيشه وذهب عن أبى زيان وعن قومه ما كانوا فيه من خوف واشفاق . ولولا ذلك لذبحوا نساءهم وبناتهم وحظاياهم بقيا على العرض وأنفة من العار .

ومن أعجب ما يؤثر من غضبة الشعب للمرأة وأنفته لها وثورته من أجلها ، أن السلطان عبد الحق بن أبى سعيد المرينى لما لم يجد غناء في وزرائه إستعان برجلين من اليهود ، فكانت رياستهما محنة على الأمة وبلاء على العباد ، فلم يدعأ وسيلة من الخسف والأذى في الأرواح والأموال إلا اتخذها في غير حرج ولا هوادة ، وصبرت الأمة لهذه النازلة وراحت نفوسها على احتمال تلك الكارثة وكان احتمالها بالغا وصبرها جميلا ، كان ذلك حتى ذاع في البلاد أن أحد اليهوديين قبض على امرأة شريفة وأمر بضربها بين يديه ! وهنا اشتعلت النار الخالية واستطارت النفوس الوادعة وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى ، وهناك ائتمروا فيما بينهم على الفتك باليهود وثل

عرش المستعين بهم وولوا من بينهم أحد أشرافهم وبايعوه على الثبات معه حتى الموت وأحاطوا باليهود فأفنؤهم واقتسموا أموالهم واستعان عبد الحق بجنده ففكروا له وخالفوا عليه ، وقتل اليهودى الضارب طعناً بالرمح بين يديه ، وسيق هو إلى فاس وطيف به مشهراً في أحيائها وأزقتها وتكاثرت عليه الجموع تريد أن تقتسه ثم قدم إلى مصرعه فقتل وانتهى بموته عهد وانقرض بنهايته ملك وسلطان

الأسرة المنتبئة

لم يكن أهل المغرب الأقصى سراعاً إلى الاسلام حين دعوا اليه فلم يساموا إلا بعد لأى خيفة من السيف ، ثم ارتد جمهورهم عن الدين الحنيف ، ثم أثابوا أخيراً اليه ، وفي عهد تلك الفتنة المضطربة نهض رجل في أحد أعمال فاس يدعى طريفاً أبا صبيح فادعى النبوة ، واقتبس دينه من مآرب الناس وشهواتهم ، فاتبعه جمهور من الغوغاء ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ثم أعقبه ابنه فزاد على ما قال أبوه سخفاً من انقول دعاه قرآناً وجعل من سوره سورة الديك وسورة الحُمُر وأمثال تلك الأضاحيك ، وعلى ذلك السنن تتابع سلالة ذلك الرجل ، فليس منهم إلا من زعم أنه نبي يوحى اليه حتى انتهى أمرهم إلى أبى غفير محمد بن معاذ ابن اليسع ابن طريف فازداد خطره واستفحل أمره وأباح للرجل أن يتزوج بمن وصلت اليه يده من النساء بالغاً ما بلغ ، وأخذ يبت شياطينه في البلاد يقتلون رجالها ويسبون نساءها ، وشأنه في ذلك شأن القرامطة ، وهؤلاء وأولئك كانوا يتبعون سيرة آل فرعون في بنى اسرائيل من قتل الرجال واستحياء النساء ، وفي انسياق الغوغاء في مساق أبى غفير يقول بعض شعراء فاس

قفي قبل التفرق واخبرينا وقلوا واخبري خبراً يقينا
وهذي أمة هلكوا وضلوا وغاروا لا سُقوا مما سقينا
يقولون النبي أبو غفير فأخزي الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم رينا
ستعلم أهل تامسنا إذا ما أتوا يوم القيامة مُقْطَعِينَا
هنالك يونس وبنو أبيه يقودون البرابر حائرنا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين، واشتدت نكايته بالبربر حتى غلب على قطر كبير من البلاد وتملكه وأقام في هذا الملك تسعة وعشرين عاماً. ومن بعده جاء ابنه أبو الأنصار فتأثر سنة أبيه وازداد من إراقة الدماء. واستباحة النساء، وعظمت هيئته واشتد سلطانه، ودانت له قبائل المغرب. وكذلك كان ابنه من بعده أبو منصور عيسى فملك البلاد وجاءه ملوكها يسجدون عنوة له.

وقد وقف مسامو المغرب حيال تلك الطائفة المبيحة موقف مسامى المشرق من القرامطة، فحاربهم الأدارسة والأموية والشيعة واجتاز جند المنصور بن أبي عامر البحر إلى بلاد المغرب فلم يغنوا شيئاً، ثم نهّد لقتالهم بلكين بن زيري في قبائل صنهاجة فقهر أبا منصور وقتله وأفنى جيشه، وأجاز المنصور بن أبي عامر للمرة الثانية جنده فأئخنوا فيهم قتلاً وسبياً. ولم ينته أمر هؤلاء المفسدين إلا في أخريات المائة الخامسة، وبذلك يكون مدى أمرهم قرابة أربعة قرون. وهذا فيما نعلم أطول مدى أقامته أسرة متغلبة مبيحة

الحالة الاجتماعية

للمرأة المغربية

يأتلف أهل المغرب الأقصى من شعوب ثلاثة : البربر والعرب واليهود ، وأكثر ما يتولى اليهود من العمل أشتات المهن من تجارة وصناعة ، وليس لهم فيما وراء ذلك شأن عظيم ، غير أن أهل المغرب يذكرونهم كلما ناب خطب أو شبت فتنة أو أغير عليهم من حيث لا يعلمون

ويقوم العرب والبربر على نظام القبائل والبطون ، وكان للمرأة العربية منذ الفتح الاسلامي نصيب اختها في بلاد العرب من القيام على الأسرة والاتصال بالحياة العامة على نحو ما أسلفناه في الجزئين الأولين من هذا الكتاب ، ثم أخذت المدينة الأندلسية تسرى على قدر في جنبات هذا الاقليم ، وأخذ ملوك الدول الاسلامية المتتابعة ينهجون المدن وينشئون القصور وينقلون اليها الكثير الموفور من مباهج الحضارة ومناعمها ، واجتلبوا الجوارى من الأندلس والعراق ، وحجرت طبقات السراة والاشراف نساءها في دور الحرّم وأقاموا على خدمتهن وحجابتهن الخصيان من أرقاء الصقالبة ، وقد كان هؤلاء سبباً في القضاء على دولة يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق حين استفحل أمرهم في قصره ، فقد كان السلطان يخلطهم بأهله ولا يحجبهم عن حرمة وعياله ، ثم رابته ريبة في بعضهم فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير استاذهم وحجب سائرهم ، فراعهم ذلك وأفزعهم ، فبيتوا له الشر ودبروا له السوء حتى استأذن عليه واحد منهم يدعى سعادة وهو مضطجع في فراشه فلما أنس الغيرة منه وثب عليه وطعنه طعنات أردته قتيلاً

ودرج أوساط أهل المدن على تلك السنة من إرخاء الحجاب حتى أصبح من مسنون عاداتهم ألا تخرج المرأة من دارها إذا أعوزها الخروج إلا في جنح الليل

وإذا خرجت قعّت سائر وجهها فلا يظهر منه شيء ، ولكنّ الحال أخذت تتبدل رويداً في هذا الجيل ، وبدأ نسوة هذا العصر يخسرن عن هذا الضرب من الحجاب فهن يخرجن الآن في وضوح النهار ، ويتركن ما كُثف من الحجاب إلى ما شُفّ منه ، ويأخذن مأخذ نساء المشرق الأدنى من الثورة على ما كان عليه أمهاتهن من عزلة واحتجاز . على أن ذلك لم يجاوز أهل المدن ، أما نسوة البادية فقد بقي لهن أكثر ما كان لأمهاتهن من فطرة وطبع وأخلاق

حالتها الفكرية

لم تكن المرأة المغربية بنجوة عما كان عليه الرجل من علم محدود ، فقد جاذبته أسباب ذلك العلم وظهرت في بعض نواحيه ، ويتحدث أهل المغرب عن كثير من النساء تناولن الشعر والنثر وإن لم يكن فيما تناولنه شيء يستحق التدوين . وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم بقرآته جميعاً ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين ويذكر أهل ذلك الإقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جعلن إلى النفاذ في ذلك كله حفظ مدونة الامام مالك بن أنس رضي الله عنه وهي أكبر المطبوعات الجامعة في الحديث والفقه

وفي إقليم شنقيط حيث البداوة التي لا تشويها كلفة العيش ولا رفاهة الحياة يسير النساء في مساق الرجال من درس علوم الدين وقرآات القرآن الكريم . وهناك تعقد المحافل لامتحان الحفاظ الذين حفظوا الكتاب الكريم بمختلف قرآاته فيجلس أشياخ القراء صفّاً ممدوداً ويجلس الحفاظ أمامهم وظهره اليهم ويتلو ما يطلبون تلاوته منه مروياً بما يقترحون عليه من الروايات . ولا بأس أن يكون في هذا المحفل طائفة من النساء .

واليوم يقف التعليم الفرنسى فى بلاد المغرب الأقصى قبالة التعليم الدينى ،
ولكل من التعليمين خصوم وأشباع . وقد بث الفرنسيون مدارسهم فى عامة
مدن المغرب الأقصى فأقبل عليها المحدثون إقبالاً عظيماً وصارعت اللغتان الفرنسية
والاسبانية اللغة العربية فى المدن الساحلية حتى إنك تطوف بأرجاء طنجة فلا تكاد
تسمع كلمة عربية خالصة من رجل أو امرأة

واليوم تجد فى تلك البلاد طائفة ظاهرة من النسوة اللاتى تخرجن فى العلوم
لدينية وأخرى من اللواتى تخرجن فى المدارس الفرنسية

ومن الطائفة الأولى :

السيدة الشريفة فاطمة الزهراء ابنة السيد محمد بن احمد الادريسي
تحفظ القرآن الكريم بقرآته ، وتحفظ كثيراً من كتب الفقه والحديث ،
ولها فوق ذلك صلة وثيقة بالعلوم العصرية ، ولم تبارح دار أبيها قط ، وتخرجت
على أبيها وجدها

السيدة عائشة الشنقيطية

تخرجت فى شنقيط ، وانتقلت إلى مراكش ، ولها بها منزلة طيبة ومقام محمود
وقد برعت فى العلوم الدينية والعربية وحفظت سبعمائة حديث وأخرجت بعض
الكتب والرسائل

ومن الطائفة الثانية :

السيدة زينب الغريظية

من سلالة أندلسية ، تخرجت فى المدرسة الفرنسية بفاس ، وعينت بدراسة

الأدب العربي ، وتكتب إلى جريدة الشهاب بالجزائر مقالات طيبة في الأخلاق والاجتماع .

السيدة خديجة المرينية

من أهل الرباط ، تخرجت في مدرستها الحكومية وأقبلت على دراسة الأدب العربي حتى تسامت فيه ، ولها كتاب في التدبير المنزلى ولعل لها غيره من المؤلفات ولا نحاول هنا أن نستقصى الطبقة الظاهرة من متعلمات المغرب ، فحسبنا أن ندل عليها بهؤلاء . على أننا نقول : إن الفصل الحاسم بين العلوم الدينية والمدنية وفصم الأواصر بينهما ليس من شأنه أن يخرج المرأة الصالحة للحياة . فكل ما رُكب في المرأة من عاطفة متوثبة ووجدان متأثر وحس دقيق إنما ينزع إلى الدين ويسعى إليه ويستنير به ، الدين وحده عصمة المرأة ومنار وجدانها ، ومثار الحنان والرحمة والبر في نفسها ، ومعقد الشرف والأمانة من خلقها . فإذا فصمت ما بينها وبينه من عروة وسددت ما بينهما من طريق ، فقد سلبت منها الجُنة الواقعة وأوردتها المورد الوبي . وقد عرف ذلك الافرنج فطبعوا البنت منذ حداثتها الأولى على غرار الدين وجعلوه مستقى خلقها ومصدر قوتها ومشكاة حياتها سواء في ذلك أغنيائهم وفقراءهم وأشرافهم ودهماؤهم . وأى حصانة للمرأة أقوى من أن تراقب الله وتستمتع قوله وتتلو آية ، وتمثل في الصلاة بين يديه ، وتمتلى مشاعرها بذكر جلاله وعزته ، وناره وجنته ، وما يظفر البررة الأخيار من قربه ومحبه

وإن من أوهن الرأي أن تحاول إصلاح البنت بقطع ما بينها وبين أمهاتها السالفات من سُنن وعادات ، وتدخلها في غمار فئات من النساء ليس لها ما لهن من طبع وتكوين ، فانك بذلك تخرج المرأة الحائرة الثائرة المتمردة التي تزدري الماضي ويزدرى المستقبل ، فهي هابطة بين القريتين ، لا شرقية ولا غربية وليس

لها سمة ولا شخصية . تحاول أن تحاكي المرأة الأوربية فيأبى عليها بُعد ما بين الفطرتين فتقنع من المحاكاة بظواهر ملهية كل ما فيها من الأثر أنها تغرها من نفسها وتحرفها عن دينها وتفتنها عن الطريق القويم . وليس من الخير في شيء أن تحمل المرأة الشرقية على نسيان ماضيها ، ولكن الخير كل الخير في إصلاح ذلك الماضي وتهذيبه وإحكام الاعتصام به .

تلك كلمة لا نخص بها هذا الاقليم من العالم الإسلامي ، ولكننا نعم بها المسلمين في أقطار الأرض ، فهم الآن على سنن واحد من الحيرة في تعليم البنت وفهم ما بينها وبين الدين من صلة وأسباب ، ولو أنهم اخطوا لها النهج الواضح من تاريخ المرأة العظيمة في الاسلام أيام كانت مناط الرحمة والود للأسرة ومغرس النبل والسمو للولد ومعقد الحمية والعصية للعشيرة مع تزويدها بما تقتضيه حاجة العمران من مبادئ العلوم والفنون التي تدعم كيان المنزل وتقيم نظام الحياة — لو أنهم نهجوا لها هذا الطريق لأوجدوا منها المرأة التي تؤلف الأسرة السعيدة والأمة المجيدة والوطن العظيم

لقد خلقت المرأة لتكون قوة من قوى الوحي والالهام في نفس الرجل ، فهي كالروح السارية تحرك الأحياء ولا تترى ، وكالعقل المنير يضيء الشباب ولا يحس ، وكالكهرباء الدافعة تملأ الوجود ولا تدرك . هي خلق قوام حياته الجود بالنفس والفناء في سعادة الجماعة ، واحتمال الآلام المضنية والأهوال المروعة في راحة الزوج والولد ، وهي كعمود الثقاب ينشر الضوء في كل شيء ثم يحترق . تلك هي المرأة التي جعل الله السعادة بين شفتيها ، وجعل الجنة تحت قدميها ، وفرض لها من الطاعة في رقاب الأبناء أضعاف ما فرض للآباء . هي سر عظمة الأمة ومبعث قوتها ومشرق صفوها وسعادتها . فإذا تنكبت تلك المحجة وانحرفت عن هذا السبيل فثارت على البيت والولد وانكشفت في المجمع والأندية ، وانفجرت في الملاعب والملاهي ، وراحت

تعلن عن نفسها بشقاشق القول وفضول اللسان ، فهناك الويل والوبال ، وهناك
الفناء والدمار . ! ولا تقل إن مثل ذلك كائن في بلاد المدنية الحديثة . ففي تلك
البلاد خير وشر ، ومن شأن الجسم القوى أن تقاوم قوته ما قد يُلم به من ضعف
وفساد ، فهناك الخير يطوى الشر ويحمله ، وهناك نار الجذ تنقى زيف اللهو وتُحيله ،
على أن كثيراً من كتّاب تلك البلاد ينظرون إلى ما أصاب المرأة من شطط واندفاع
فيقولون إن هذا اتحار للأمة سريع الأجل ! فما بالك بمن يأخذ بذنب الشر ويترك
ناصية الخير ، فالحياة عنده لهو ولغو وضجة وإعلان

ألا فليعلم القوم أن المرأة قطب الحياة ، فإذا استقامت استقامت ، وإذا تمايلت
اندكت ، وما قوامه إلا الدين ، فهو الأساس الثابت والبناء المتين

مَعْجَم

بما ورد في تفاريق هذا الجزء من الأعلام وما يحتاج الى الشرح من الألفاظ (١)

الهمزة

الأبْح الممتلئ ، والغليظ من العيدان	أَبَحَّ
بلدة على شاطئ دجلة في منعطف الخليج الذي يدخل مدينة البصرة	الأُبْلَّة
وكانت من أعظم منازله الدنيا	
الأحص من الطير القليل ريش الجناح ومن الرجال القليل شعر الرأس	أَحَصَّ
الأحوى ذو الحوة وهي الحمرة المائلة إلى السواد والعرب تستحسن	أَحْوَى
ذلك في الشفاء وأثناء حواء	
نسبة إلى اذربيجان وهي إقليم من أعظم أقاليم الفرس. قصبته تبريز	أَذْرَبِي
جمع أرومه : الأصل	أُروم
الأزج ضرب من الأبنية ، وباب الأزج محلة ببغداد	أَزَج
جمع أسوة وهي القدوة من كل شيء	أَسَى
من الشَّطَّاط بفتح الشين المشددة وكسرهما : الطول وحسن القوام	أَشْطَّ
الأشكل الذي يجمع بين الحمرة والبياض	أَشْكَل
اسم لمدينتين متقابلتين قرب مراكش	أَنْعَمَات
الأغن من الظباء الذي يخرج صوته من خياشيمه	أَغَنَّ
جمع فيء : الظَّل	أَفِيَاء

(١) أثبتنا الألفاظ في هذا المعجم على صورتها من الكتاب ، ولم نراع فيها أصل الاشتقاق ليسهل

أقفزة جمع قفيز مكيال يسع ثمانية مكايك والمكوك صاع ونصف أو نصف الوية

الإمامية فرقة من الشيعة، وهم القائلون بإمامة اثني عشر إماماً، أولهم الإمام علي المرتضى كرم الله وجهه، ثم ابنه الحسن المجتبى، ثم أخوه الحسين شهيد كربلا، ثم ابنه علي السجاد زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق، ثم ابنه موسى الكاظم، ثم ابنه علي الرضا ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي النقي، ثم ابنه الحسن الزكي، ثم ابنه محمد الحجة، وهو المهدي المنتظر عندهم. يقولون إنه دخل مع أمه وهو صغير سرداباً بالحلة على القرب من بغداد ففقد ولم يعد، فهم ينتظرونه إلى الآن، وفي اعتقادهم أنه سيخرج إذا فشا الظلم وعمت الفتنة وفسد الزمان فيرد الناس إلى الهدى ويؤلف بينهم جميعاً

الباء البذاءة سوء الحال ومنه فلان بذ الهيئة وبأذها أى رثها. بنان سمي بهذا الاسم ذكور وإناث، ومن الذكور بنان المغنى، ومن الاناث جارية الفضل بن العباس الهاشمي، وكانت مغنية شاعرة

النساء ترشح من رضح الحصى والنوى كسره

النساء الثنايا جمع ثنيّة: الطريقة في الجبل الجيم

الجِران مقدم عنق البعير من منحره إلى مذبجه

الجُرَّادُ جمع جريدة وهي الخيل التي لا رَجَّالة فيها والبقية من المال
 البعير أو هو خاص بالناقة المجزورة وجمعه جزائر وجزر
 الجَمَانُ اللؤلؤ أو حبات على شكله من الفضة
 جَمَشَ بفتح الميم مشددة ومخففة غازل وداعب
 الجُونُ جمع جَوْن وهي من النبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته
 والأحمر والأبيض والأسود ، ومن الإبل والخيل الأدهم أى الأسود

الحاء

حَسَكُ نبات شائك شوكة ذو ثلاث شعب
 حَصَانُ المرأة العفيفة أو المتزوجة
 الحَوَذَانُ نوع من النبات ناضر الزهر مشرقه
 حيازيم جمع حَيَزُوم : وسط الصدر ، أو ضلعُ الفؤاد ، أو ما اكتنف الحلقوم
 من جانب الصدر

الخاء

خَنَثَ الخنث التكرس والتثنى
 الخَوَرْنِقُ قصر للنعمان بن المنذر بالحيرة
 خَيْفٌ الخيف كل هبوط وارتقاء في الجبل ، وهناك أخياف كثيرة : منها
 خيف مَنَى ، وخيف سَلَام ، وخيف النِّعَم

الدال

دابق قرية قرب حلب عندها مرج معشب نزه وبها قبر سليمان بن عبد الملك

دَيِّقُ بلدة مصرية بين الفرما وتنبس وكان ينسج بها صنف شائع من الثياب يسمى الديقية

دَرْسُ درس الرسم ودرسته الريح محته
دَنّ إناء أطول من الحُب (الزير) يحفظ فيه الحمر ويحتفرله ويوضع في الأرض إلى قرابة نصفه

الراء

رُزَامُ وقد مرّت على المصحح مضمومة في الطبع فلم ينتبه لها — صوت البعير الذي ثقل عن النهوض أو صوت الناقة اذا رثمت ولدها أى أدركها الحنان له

الرَّعِيلُ القطعة من الخيل أو مقدمتها

السبع

سَرَارِي جمع سُريّة وهى الأمة التى بوائها بيتاً وتسرها وتسراها اتخذها سرية الشَّرو شجر، وما ارتفع من الوادى السَّعدان نبات شائك ترعاه الابل السَّنَد ما قالك من الجبل وعلا عن السفح سَوَاهم متغيرات الوجوه حزناً ودهشة

السبع

الشَّعَانِين وممناه بالعربية التسبيح ويسمى عيد الزيتون وستهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ذكرى يوم ركوب المسيح لليعفرور (الحمار) فى القدس ودخوله صهيون والناس يسبحون بين يديه

الصا

الصَّالِي

من صَلَّى اللحم اذا شواه أو صلا يده بالنار سخنها أو صا النار
قاسى حرها

صَرَائِم جمع صريمة أو صريم قطعة الرمل من الكتيب

الطاء

طَارَمَة

من الطُّرْم وهو ضرب من الشجر

الطَّفَلَة

الفتاة الرَّخْصَة الناعمة

العين

عَبِير

العبير الزعفران أو أخلاط من الطيب

عَجَفَاء

من العَجَف وهو الهزال

العُفْر

جمع عفراء وهى من المواطن كل أرض بيضاء لم توطأ

العِلج

الرجل من كفار العجم

العَيْر

حمار الوحش

عيسى باز

ضاحية من ضواحي بغداد الى الشرق منها ومعنى باز بالفارسية عمارة

فهي عمارة عيسى والمراد به عيسى بن المهدي وكانت اقطاعاً له

الغين

غَالِيَة

الغالية ضرب من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن

اغْتَبَاق

الاجتباق الشرب بالعشى والغبوق اسم للشراب

الغَوْر

قاع كل شئ

الفاء

فى

الغنيمة والظل ينسخ الشمس

الفاف

القائم بئِة كانت قرب سامرا من أبنية المتوكل
القينية إناء من زجاج للشراب
قهارم جمع قَهْرَمَان وقهرمانه وهو المدبّر الحفيظ على ما تحت يده
قين القين الحداد

الطاف

الكلفاء من الكلف وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم ولون بين السواد والحمرة

اللام

اللجون من الابل الحرون
لَسَب يقال للعقرب اذا أنفذت إبرتها لسبت
اللياح قر ليّاح زاهر ناصع

الميم

متالع المتالع مسایل الماء من المرتفعات
المثاني جمع مثى وهو الوتر الثاني من أوتار العود
المُدبَرَة من الجوارى التى يقول لها سيدها أنت حرة بعد موتى وهى لا تباع ولا تورث ، ومثلها المدبّر
مُزَنّرات لابسات الزنانير جمع زُنّار وهو ما يشد على وسط النصارى والمجوس
المِسْح الكساء من الشعر وجمعه أمساح ومسوح
المُسّهمة ثياب تشبه نقوشها السهام

المَطِيرَة

— وقد صَفَّها الطابع بضم الميم وسها عنها المصحح — قرية من نواحي سامرّا ، وكانت من متنزّهات بغداد

المِقْلَى

آلة القلَى أى الانضاج

المِهْرَجَان

— بفتح الميم — اليوم التاسع من شهر أَيْب وهو سادس أيام ستة تقام فيها أعياد المهرجان وأصله عيد فارسى وعندهم أخذه القبط واتخذوه العرب أيضاً موسماً يحاكون فيه الفرس وهم يتيمنون فيه باهداء الأترج والسكر والنبق والسفرجل والعناب والتفاح والمهرجان — بكسر الميم — احتفال الجمع وازدحامه

النور

نَبَطَى

نسبة الى النَّبَط وهم جيل ينزلون بالبطائح بين العراقيين

النَّظَام

ابراهيم النظام إمام المعتزلة وحجتهم واقدر أهل عصره فى الجدل والمنطق

نَمْتَار

نحتلب الميرة أى الطعام

نَمْرَقَة

بتليث النون والقاف الوسادة أو الطَّنْفَسَة

النِّيْرُوز

وهو عيد الربيع وعيد السنة الجديدة عند الفرس وعندهم تناقله كثير من الأمم وهو ستة أيام وفى ليلته يقف بياض الملك فتى صبيح الوجه فاذا أصبح دخل عليه غير مستأذن فيقول له الملك من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك فيقول أنا المنصور واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ثم يجلس وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الاسلام الحجاج بن يوسف الثقفى

الواو

وشيجة	الوشيجة شجر الرماح واشتباك القرابة
الولاء	المَلِكُ والمولى المالك والعبد والمعْتِق والمعْتَق
وهاد	جمع وهد ووهدة — الأرض المنخفضة

الياء

يَسْتَشِرِي	يشد غضبه
يلتدم	يلطم وجهه
يَلِي	يتولى الأمر

مراجع الكتاب

تلك جملة الكتب التي رجعت عليها في تحرير هذا الجزء من الكتاب

المؤلف

التاريخ

الطبري

تاريخ الأمم والملوك

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

ابن الأثير

الكمال

المسعودي

مروج الذهب

أبو المحاسن يوسف الأتابكي

النجوم الزاهرة

ابن أبي طاهر طيفور

كتاب بغداد

الصابي

تحفة الأمراء

ابن خلكان

وفيات الأعيان

ابن الطقطي

الفخرى

أبو حنيفة الدينوري

الأخبار الطوال

الأزهري

بيان المغرب

لسان الدين بن الخطيب

الاحاطة في أخبار غرناطة

المقري

نفح الطيب

التميمي المراكشي

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

التشريع الاسلامي

الخضري

تاريخ التشريع الاسلامي

مالك بن أنس

المدونة

الشياني

تيسير الوصول

ابن عابدين

رد المحتار

الأدب والاجتماع

أبو الفرج

الأغانى

أبو علي القالي

الأمالي

ياقوت الرومي

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب

المؤلف	التاريخ
ابن سعيد	المغرب في حلى المغرب
السراج	مصارع العشاق
النويرى	نهاية الأرب
	المحاسن والأضداد
الجاحظ	التاج
	رسالة القيان
البيهقى	المحاسن والمساوىء
الشريشى	شرح مقامات الحريرى
الراغب الأصفهانى	محاضرات الأدب
ابن عبد ربه	العقد الفريد
الشمسلى	يتيمة الدهر
الفتح بن خاقان	قلائد العقيان
	الخطط
	مراسد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع
ياقوت	معجم البلدان
المرزوقى	الأزمنة والأمكنة
	رحلة ابن جبیر
	رحلة ابن بطوطة
اليقونى	صفة المغرب
ابن فضل الله العمرى	مسالك الابصار
	الفرق الاسلامیة
ابن حزم	الفصل فى الملل والاهواء والنحل
الشهرستانى	الملل والنحل
من صبح الاعشى للعقشدى	الفرق الاسلامیة

فهرس

الجزء الثالث من المرأة العربية

في جاهليتها واسلامها

١٠ — ٣

الأمة العربية بين الرأي والهوى

الفتوحات الاسلامية — سرقة المسلمين — اشفاق الرسول وخلفائه من تأثر المسلمين بالترف . العصبية العربية في الدولة الأموية . الترف والشهوات في الدولة العباسية . افتتان الرجل . تأثر المرأة

٦٤ — ١١

الجواري

الجواري في العراق . السباء . تكاثر الجواري . الجواري يملكن أزمة العرب . وسائل الفتنة . الجمال . التجميل . وصف الجاحظ للجواري وتأثيرهن . أدب الجواري . شعر الجواري . غناء الجواري . بذل . عنان . بصبص . دنائير . عريب . فضل . محبوبة . غلبة الجواري على قلوب العرب . الجواري في عهد المهدي والهادي والرشيدي والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل . نفوذ الجواري . الهادي والخيزران . ذات الخال وحمويه . حديث الجاحظ عن نفوذ الجواري . الجواري عيون الخلفاء . يعقوب بن داود والمهدي . الجواري يتجسسن للعأمون . رقابة الجواري . أمومة الجواري . الجواري في الاندلس . قر . الناصر وجواريه . الزهراء . قصر الزهراء . صبح . شعر ملوك الاندلس في الجواري . المعتمد وجواريه . اعتماد . الجواري المدينيات في الأندلس . بنو الأغلب . الجواري في العصر الفاطمي

٧٢ — ٦٤

الديارات

فتنة العرب في الديارات . ديارات العراق . ديارات الشام

٧٦ — ٧٣

دور المآتم

ذبوع البغاء في العراق . الحانات . الواثق وحانتاه . العلم والأخلاق في الدولة العباسية

المرأة العربية في العراق

١٢٦ — ٧٧

كيف كان العباسيون ينظرون الى المرأة — ٧٧ — الصدمة الأولى : طلاق المكره
— ٧٩ — التجنى على المرأة العربية ٨٠ الاغراء بالفساد ٨٢ حلول الكارثة — ٨٥ —
بيت بنى العباس — ٨٥ — بيت العلويين — ٩١ — اتصال البيتين — ٩٣ — القطيعة
— ٩٤ — الاقتداء — ٩٤ — النساك والناسكات — ٩٥ — رابعة العدوية . عبدة
البصرية . غيرة بنت عثمان . معاذة بنت عبد الله انصراف المتنسكات عن الزواج .
المرحلة الثانية — ١٠١ — الكساد . إباحة المثعة والزواج الموقوت — ١٠٣ — آثام
الظنون — ١٠٤ — الحجاب — ١٠٦ — محنة المرأة في فتنة القرامطة — فرقة الاباحه
— ١٠٨ — الحياة الفكرية للمرأة في العراق — ١١٣ — المرأة والقضاء — ١١٣ —
المرأة البدوية — ١١٥ — ماثور من أدب النساء — ١١٦ —

المرأة الأندلسية

١٤٩ — ١٢٧

الحياة الأندلسية الأولى — المرأة في هذه الحياة . عصر عظمة المرأة الأندلسية .
المرأة في القرن الخامس الهجرى . أدب النساء . ولادة بنت المستكفي . حمدة بنت
زياد . مريم بنت يعقوب الانصارى . نساء غرناطة . دراسة الأدب في الأسر الأندلسية .
بعد القرن الخامس . الترف . الوهن . انسياق أهل الاندلس في مساقى الأفرنج .
أدب هذا العصر . أثاره من أدب الاندلسيات

المرأة المغربية

١٥٩ — ١٥٠

المغرب الأقصى . أهله . نساؤه . الاسرة المتنبئة . الحالة الاجتماعية للمرأة المغربية .
حالتها الفكرية . حالتها العامة . التعليم الدينى والتعليم الحديث للمرأة المغربية . السيدة
فاطمة الزهراء . السيدة عائشة الشقيطية . السيدة زينب الغرنيطية . السيدة خديجة
المرينية . كلمة المؤلف في التريتين

معجم الكتاب

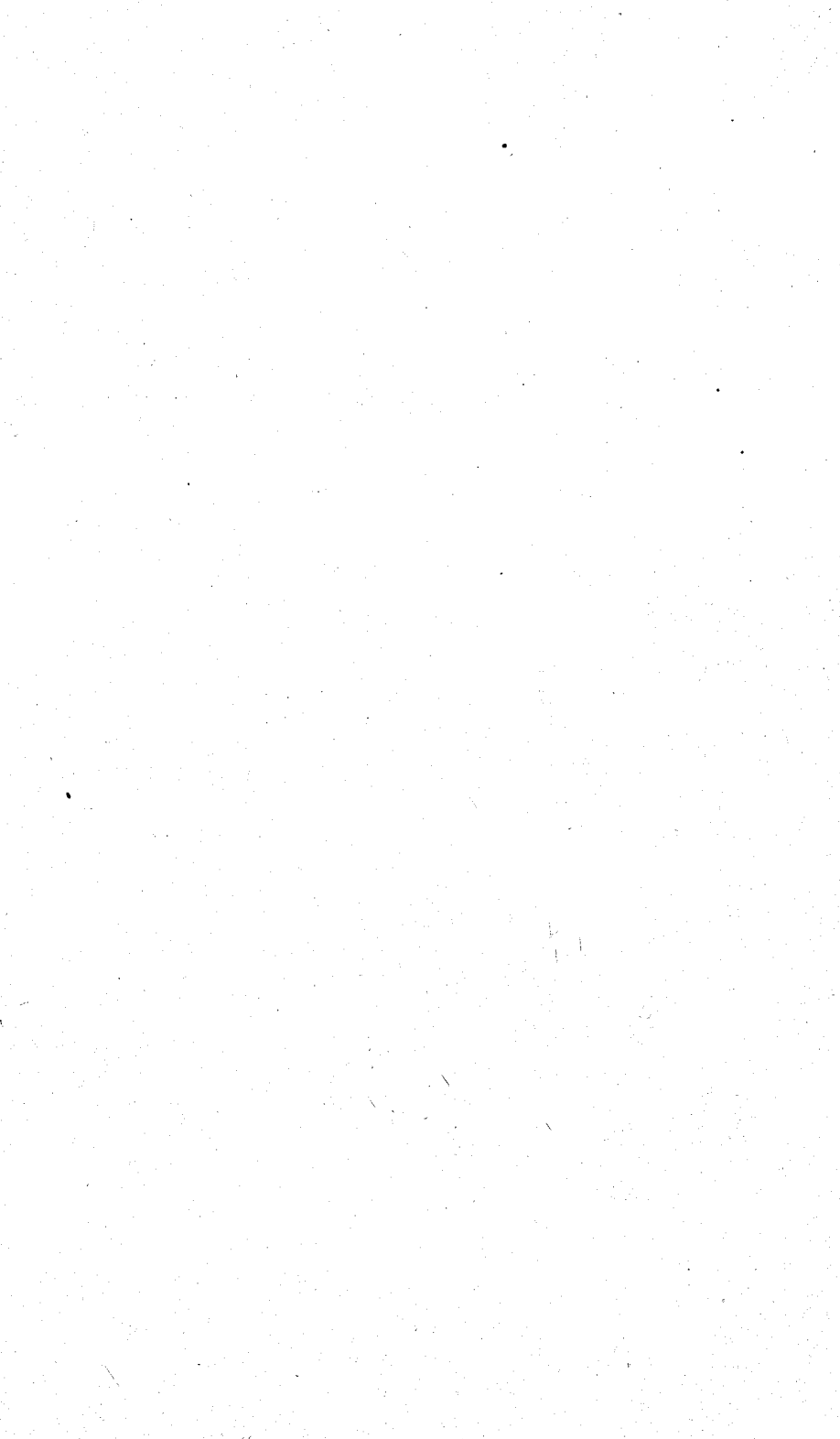
مراجع الكتاب

١٦٠

١٦٨

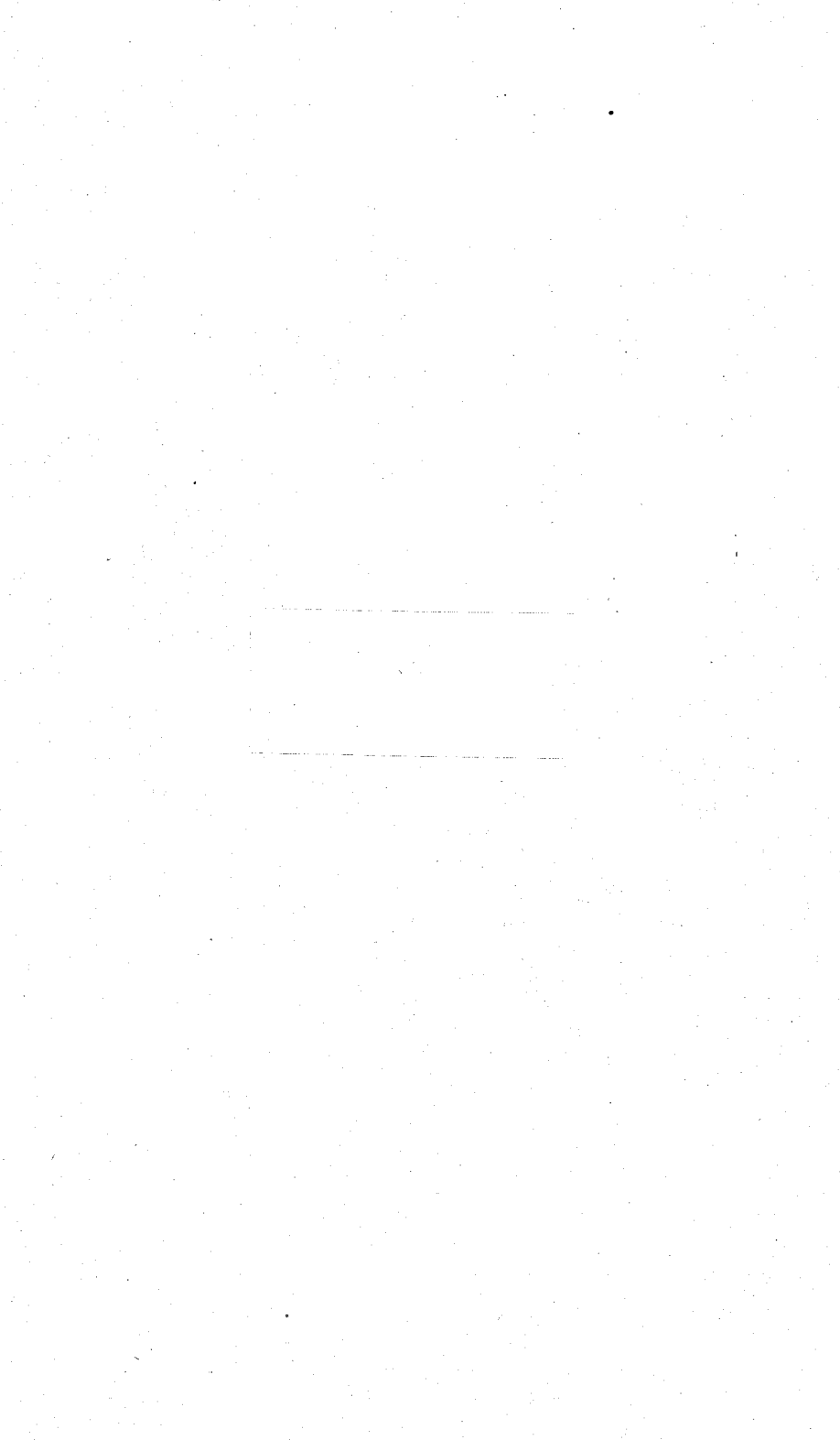


جاریتان بغدادیتان ترقصان



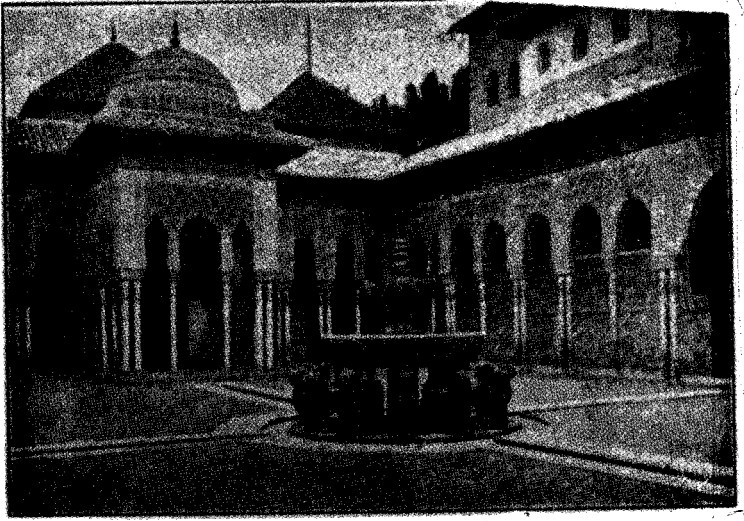


في قصر من قصور بغداد



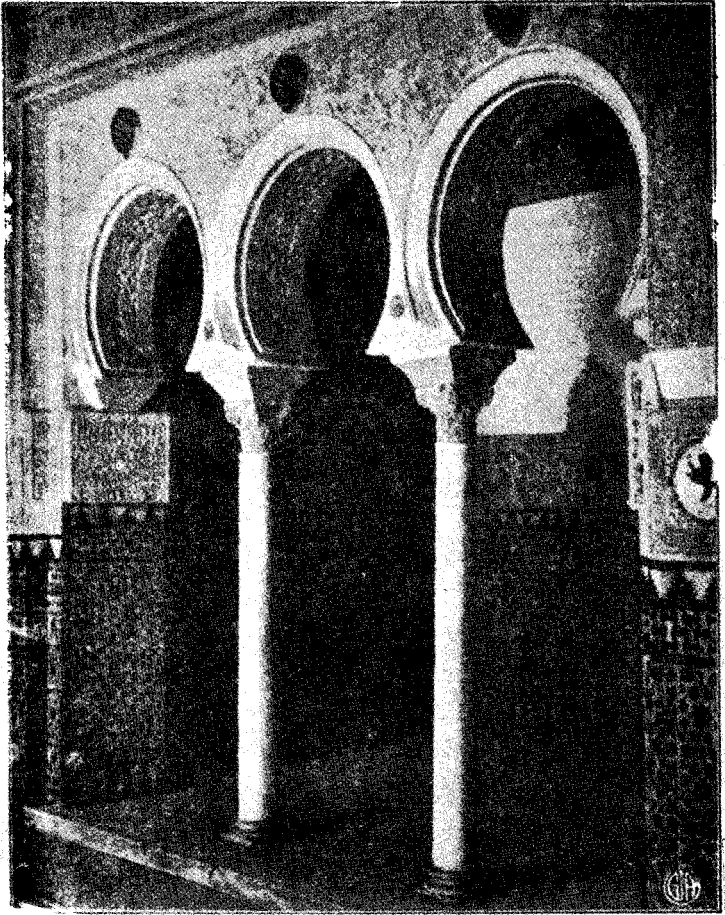


فتيات أندلسيات بالزى المراكشى

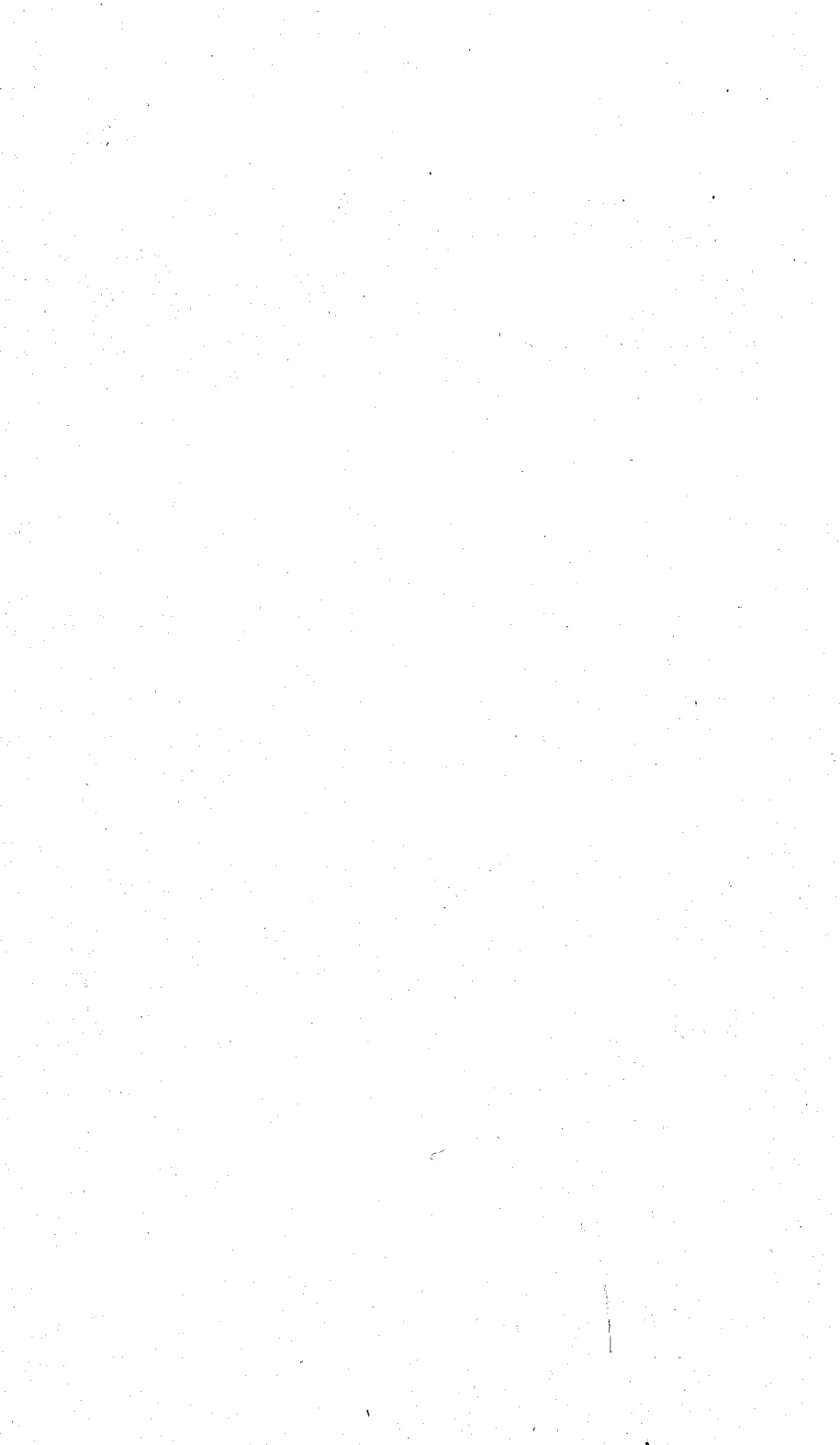


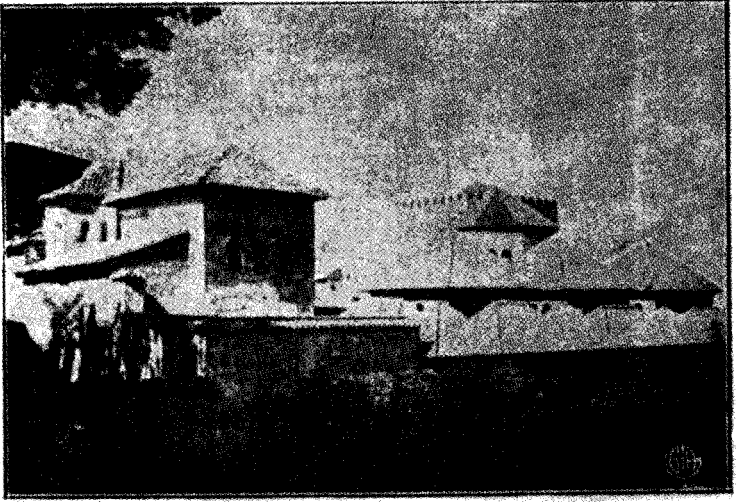
ساحة الأسود بقصر الحمراء بغرناطة





مخدع الملكة في قصر أشبيله





الجانب الشرقى من قصر الحمراء بقرطبة



فتاة مغربية أعراية من سكان جنوب المغرب الأقصى



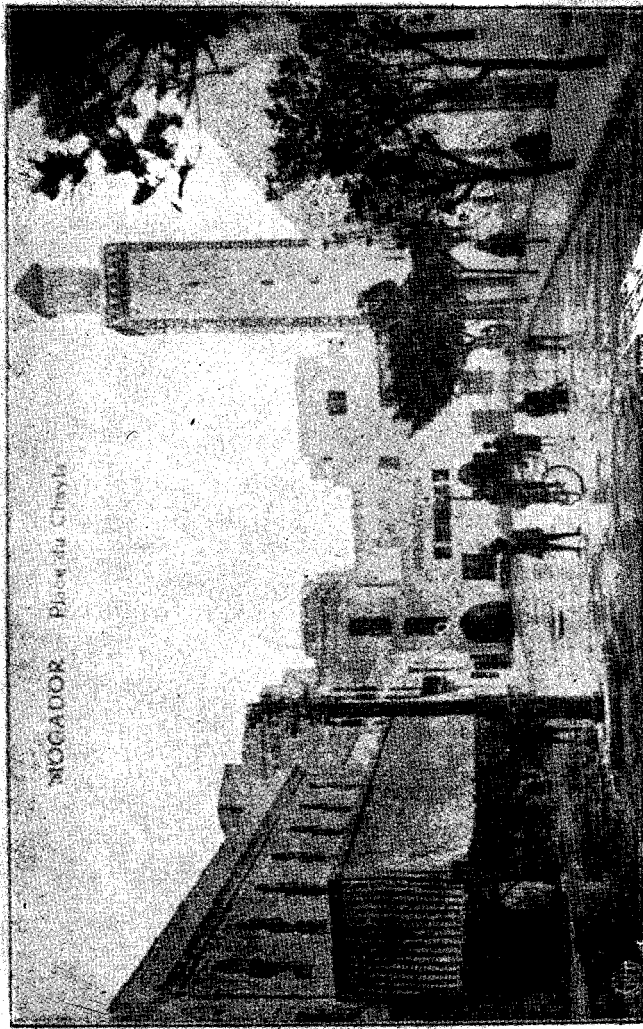


سيدة مغربية من المنطقة الاسبانية وهي مرتدية الزي المنزلى المراكشى





طائفة من السيدات المغربيات يشاهدن موكب (سلطان الطلبة) وهو موسم من مواسم المغرب يجتمع فيه الطلبة المغربيون وعلى رأسهم سلطانهم الذي اختاروه لهذا اليوم ويتولى ملك الطلبة ثلاثين يوماً تقدم له فيها كل مراسم الملك وسماة السلطان وتكون ولايته هذه من قبل سلطان المغرب بمرسوم سلطاني وهنالك يتقبل (سلطان الطلبة) الهدايا والهبات من كل ذي شأن بهذه البلاد وكل ما يجمع ينفق على ترفيه الطلبة وتزويجهم وما يبق من ذلك يوزع عليهم على سواء



ميدان (الصورة) من ثغور المغرب على المحيط الاطلنطي
وتماز على ثغور المغرب بجودة هوائها وحسن منظر المحيط المنعطف عليها

دار مصر للطباعة

سميد جودة السحار وشركاه